رواية

ميلان كونديرا

@ketab_n
21.3.2015

البُطْء

ترجمة: خالد بلقاسم

المركز الثقافي العربي

ميلان كونديرا

البُطْء

رواية

ترجمة

خالد بلقاسم

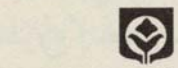

المركز الثقافي العربي

Twitter: @ketab_n

الكتاب

البُطْء

تأليف

ميلان كونديرا

ترجمة

خالد بلقاسم

الطبعة

الأولى، 2013

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-579-3

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 212 522 305726+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 961 1 343701+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

Twitter: @ketab_n

هذه ترجمة عن اللغة الفرنسية لكتاب:

La lenteur

Milan Kundera

إن حقوق الترجمة العربية محفوظة **للمركز الثقافي العربي**
بموجب عقد مع صاحب حقوق النشر
© Milan Kundera, 1995
وأي نسخ لهذه الطبعة أو أي ترجمة أخرى تقع في دائرة العمل
غير المشروع وتخضع للملاحقة القانونية

Twitter: @ketab_n

1

تملّكتنا الرغبة في تمضية فترة السهرة وقضاء الليل بواحدٍ من تلك القصور التي تحوّلَ الكثيرُ منها إلى فنادق، هو بقعة خضراء مُربّعة ضائعة في امتدادٍ من البشاعة القاحلة؛ بقعة صغيرة من المسالك والأشجار والطيور وسط شبكةٍ ضخمة من الطرقات. أقودُ السيارة في الطريق إليه، وعبْر المرآة أتابعُ سيارةً خلفي، يتردّدُ وميضُ مصباحها الصغير الأيسر فتُرسِلُ كلُّ مصابيحها ضوءاً ينمّ عن فقدان الصبر. يترقّبُ السائقُ الفرصة لتجاوُزي، مُترصّداً تلك اللحظة كما يترصَّد طائرٌ كاسرٌ عصفورَ الدُّوري.

فيرا، زوجتي، تقولُ لي: «كلَّ خمسين دقيقة، يَلقى شخصٌ حتفه على طرقات فرنسا، انظر إلى جميع هؤلاء المجانين المُسرعين من حولنا، هم أنفسهم مَن يُصبحون حذرين إلى أبعد حدّ عندما تتعرَّضُ عجوزٌ أمام أعينهم للسرقة في الشارع العامّ، فكيف يمتلكون هذه الجرأة في السياقة؟»

بمَ أجيب؟ ربّما بما يلي: إنّ المُمتطي لدرّاجته النارية لا يُمْكنُه أنْ يُركّزَ إلا على الثانية الزمنية لانطلاقه، مُتشبِّثاً بومضةٍ من الزمن مفصولةٍ عن الماضي والمستقبل، مُنتزَعاً من اتّصال الزمن،

Twitter: @ketab_n

يكونُ خارج الزمن، أو بعبارةٍ أخرى تتلبَّسُه حالة انخطاف، فيها ينسَى كلَّ شيء عن عُمره وزوجته وأبنائه وهُمومه. بانطلاقهِ، يكفُّ عن الخوف، لأنّ في المُستقبل يكمُنُ مصدرُ الخوف، ومَنْ تحرَّرَ مِن المُستقبل لا يبْقى لديه ما يخشاه.

السرعة هي شكلُ الانخطاف الذي جعلت منه الثورة التقنية هدية للإنسان. خلافاً لسائق الدرّاجة النارية، يكونُ مَنْ يَعْدو حاضراً دوماً في جسده، مُرغَماً باستمرارٍ على التفكير في مَجْلِهِ، وفي لهاثه. عندما يَعْدو يشعرُ بثِقل جسده وبعُمره، واعياً أكثر من أيّ وقتٍ مَضَى بذاته وبزمن حياته. غير أنّ كلَّ شيء يتغيَّرُ عندما يُفوِّضُ الإنسانُ مَلَكةَ السرعةِ إلى آلة، حينها يُلغَى جسَدُه، فيستكينُ إلى سُرعة حسّية، مُجرّدة، سُرعة صِرف، سُرعة في ذاتِها، هي ذاتُها انخطاف.

إنّه تحالفٌ غريبٌ بيْن بُرودِ تقنيةٍ بلا شخصية وحرارةِ الانخطاف. أتذكّرُ تلك الأمريكية، في مظهرها الصارم وحماسها المُجسِّد لِضرْبٍ من الزعامة الإيروسية التي أعطتني، قبل ثلاثين سنة، درساً (ببُرودٍ نظري) عن التحرّر الجنسي. كان اللفظُ الأكثر تردُّداً في كلامها هو الذروة الجنسية، فقد كرَّرَتْه ثلاثاً وأربعين مرّة. تقديسُ الذروة الجنسية الذي يتِمُّ انطلاقاً من النفعية المُتصلِّبة، ومن الفعّالية مُقابلَ الخمول، ومن اختزال المُضاجعة إلى عقبةٍ يَنبغي تجاوُزُها بأسرع ما يُمْكنُ لبلوغ انفجار مُذهل، أصبحَ وَحْدَه المقصَدَ الحقيقي للحبّ وللكون.

لِمَ اختفت لذّةُ البُطْء؟ آه، أين هُم مُتسكِّعو الزمن الغابر؟

Twitter: @ketab_n

أين أبطالُ الأغاني الشعبية الكَسالى، أولئك المُتسكّعون الذين يجُرّون أقدامهم بتثاقل من طاحونة إلى أخرى، وينامون في العراء؟ هل اختفوا باختفاء الدروب الريفية والواحات وفجاج الغابات، وباختفاء الطبيعة؟ ثمّة مَثلٌ تشيكي يُحدِّدُ خمولهم الوديع بالاستعارة الآتية: إنّهم يتأمّلون نوافذ الإله. ومَنْ يتأمّل نوافذ الإله لا يسأم، بل يكونُ دوماً سعيداً. لقد تحوّلَ الخمولُ، في عالمنا، إلى البطالة التي هي شيءٌ آخرُ تماماً، العاطلُ، خلافاً للخامل، محرومٌ ومُستاء، هو في بحثٍ دائم عن الحركة التي يفتقِدُها.

عبْرَ المرآة، أتابعُ السيارةَ ذاتَها وهي لاتزالُ عاجزةً عن تجاوُزي بسبب سياراتِ الخطّ المُعاكس. إلى جوار السائق تجلسُ امرأة. أتساءلُ في سرّي لِمَ لا يحكي لها أشياءَ مُسلّية، لِمَ لا يضعُ يدَه على ركبتها؟ عوض ذلك، يلعنُ سائقَ السيارةِ التي أمامه، لأنّه لا يقودُ بسُرعة. المرأة هي الأخرى لا تُفكّرُ في مَدّ يَدِها لِمُلامسةِ السائق، بل تنخرطُ معه ذهنياً في القيادة، وتُشاركه في الشتم.

ثمّ تحضُرني تلك الرحلة من باريس إلى قصرٍ ريفي، التي تمّت منذ أكثر من مائتيْ عام، رحلة السيدة ت. والفارس الشابّ الذي كان بصُحبتها. جنباً إلى جنب لأوّل مرّة، يلفّهما جوٌّ من الانجذاب لا يوصَف، يولِّدُه الإيقاعُ البطيء. التمايُل الذي تُحدثه حركة العربة يجعلُ جسَديْهما يتماسّان، في غفلةٍ عنهما أوّلاً ثمّ عن عمْد في ما بعد، لتبدأ الحكاية.

Twitter: @ketab_n

2

إليكم ما تحكيه قصّة فيفان دونون: بالمسرح، ذات مساء، نبيلٌ في العشرين من عمره (لمْ يُحدَّد لا اسمه ولا منصبه، لكنني أتخيّله فارساً) يَرى في الشرفة المُجاورة سيدةً (لا تُفصحُ القصة إلا عن الحرف الأوّل من اسمها: السيدة ت.)، هي صديقة عشيقته الكونتيسة. بانتهاء الفرجة، تطلبُ منه السيدة مُصاحَبَتَها. يندهشُ لهذا القرار الحاسم والمُلتبس، خصوصاً أنّه يعرفُ ماركيزاً مُفضّلاً عندها (لا نُخبَرُ باسمه، فقد دخلنا عالَم الأسرار حيث تنعدم الأسماء). من غير أن يَفهم الفارسُ مغزى هذا القرار، يجدُ نفسه بجوار السيدة الجميلة على العربة. بعد رحلةٍ هادئة ومُمتعة، تتوقفُ العربة في البادية أمام مدخل القصر، حيث يكون موساد، زوج السيدة ت.، في استقبالهما. يتناولُ الثلاثة وجبة العشاء في جوٍّ يسودُهُ الصمتُ والشؤم، ثمّ يتركهما الزوجُ بعد اعتذاره إليهما.

في تلك اللحظة، تنطلقُ ليلتُهما، ليلة كما لو أنّها لوحة ثلاثية، إنّها مثل مسارٍ من ثلاث محطات؛ يتنزّهان أوّلاً في الحديقة، ثم تجمعهما المُضاجعة في أحَد أجنحة القصر، ويُواصلان، أخيراً، المُضاجعة في مقصورةٍ سرّية بالقصر.

عند مطلع الفجر، يفترقان. ولمّا لا يهتدي الفارسُ في متاهة الأروقة إلى غرفته، يعودُ إلى الحديقة، فتُصيبه الدهشة، إذ يجدُ بها الماركيز عشيق السيدة ت. على حدّ عِلمه. الماركيز الذي

Twitter: @ketab_n

وصلَ للتوّ إلى القصر، يُحَييه بانشراح ويُفشي له سِرَّ الدعوة الغريبة التي تلقاها من السيدة ت. التي كانت بحاجة إلى ذريعة كي يبقى هو، أي الماركيز، بمنأى عن شكوك الزوج. هكذا يسخرُ الماركيز، مُبتهجاً بنجاح الخدعة، من الفارس الذي أرغِمَ على تأدية الدور المُضحك لعاشقٍ مُنتَحَل. ثم يعودُ الفارس بعد أن أنهكه إجْهاد الليلة السابقة إلى باريس على مقعد العربة الذي يمنحه له الماركيز شاكراً.

نُشرت القصة للمرّة الأولى بعنوان ليلة بلا غد عام 1777، وقد عُوّض اسم المؤلف (ما دُمنا في عالم الأسرار) بستة حروف تصدير، هي: س. د. ن. خ. ل. م. التي يُمْكنُ قراءتُها، إن شئنا، على النحو الآتي: «س. دونون، النبيل الخادم لدى الملك». ثم نُشرت في طبعاتٍ محدودة، مُجرّدة تماماً من أيّ تعيين للمؤلِّف، عام 1779، قبل أن تُنشَر مرّةً أخرى وقد نُسِبت إلى مؤلِّفٍ آخر. طبعاتٌ أخرى، دوماً بدون الاسم الحقيقي للمؤلِّف، رأت النور عام 1802 و1812. في الأخير، بعد نسيان لفّها نصفَ قرن، عادت للظهور عام 1866. مُنذ هذا التاريخ، نُسِبت، إلى فيفان دونون، وقد شهدت خلال القرن الحالي نجاحاً مُتصاعداً. تُعدُّ اليوم أحدَ الأعمال الأدبية التي يبدو أنّها تُمثلُ فنَّ القرن الثامن عشر وفكرَهُ خيرَ تمثيل.

Twitter: @ketab_n

3

السائد بوجهٍ عامّ أنّ مفهوم مذهب اللذة يعني نزوعاً لا أخلاقياً نحو حياة المُتعة، إن لمْ نقل الرذيلة. هذا، طبعاً، مُجانبٌ للصّواب. فأبيقور، أكبر مُنظِّري اللذة، فهِمَ الحياةَ السعيدة بارتيابٍ تامّ، إذ رَأى أنَّ مَنْ يشعُرُ باللذة هو مَن لا يتألّم. الألمُ، إذاً، هو الفكرةُ الأساس لمذهب اللذة. يكونُ الإنسان سعيداً عندما يعرفُ كيف ينأى عن الألم، وبما أنّ اللذات تحملُ، في الغالب، مِن الشقاء أكثر مِمّا تحمله من السعادة، فإنّ أبيقور لا يُوصي إلا باللذات المُحترزة والمُعتدلة. للحكمة الأبيقورية خلفية كئيبة، إذ تَرَى أنّ الإنسان تيقّنَ، لمّا زُجَّ به في بُؤس العالَم أنّ اللذة هي وحدها القيمة الحقيقية والثابتة التي يُمْكنه هو نفسُه أنْ يشعُر بها مهما كانت صغيرة؛ مثل جُرعة ماء عذب، نظرة صوبَ السماء (صوب نوافذ الإله)، مُداعبة..

اللذاتُ، مُعتدلة أو غير مُعتدلة، لا تخُصُّ إلا مَنْ يشعُر بها. يُمْكنُ لفيلسوفٍ أنْ يُؤاخِذ على مذهب اللذة، بحقّ، أساسَه الأناني. ومع ذلك ليست الأنانية، في نظري، ما يُشكّلُ نقطة ضعف مذهب اللذة، بل (وأتمنّى أنْ أكونَ مُخطئاً) خصيصتُها الطوباوية على نحو مُثبِّط، لذلك أشكُّ في إمْكان تحقّق المَثل الأعلى لمذهب اللذة، أخشى أنْ تكونَ الحياة التي يدعونا إليها غير مُتلائمة مع الطبيعة البشرية.

لقد عمِلَ الفنّ، في القرن الثامن عشر، على إخراج اللذات

Twitter: @ketab_n

من عتمة الممنوعاتِ أخلاقياً، وولَّد الموقفَ المُسمّى تحرُّراً جنسياً الذي يُستشفُّ من لوحات فراغونار وواتّو، ومِن كتابات ساد وكريبيون الابن أو دوكلوس. وهو السبب الذي يُفسِّرُ وَلعَ صديقي الشاب فانسون بهذا القرن، بل لو استطاع لوَضَعَ صورةً جانبية لِوجْهِ ماركيز دو ساد على ظهْر بذلته. أقاسمه ولعَه، وأضيفُ مع ذلك (من غير أنْ أكون مُتفقاً تماماً) أنّ عظمة هذا الفنّ لا تكمُنُ في بعض أوجُهِ إذاعَتِه لمذهب اللذة، بل في تحليلِه. وهو ما يجعلني أعتبرُ رواية العلاقات الخطيرة لكودرلوس دو لاكلوس واحدة من أهمّ الروايات في كلِّ الأزمنة.

لا تهتمّ شخصياتُها إلا بالاستحواذ على اللذة. ومع ذلك يُدركُ القارئ تدريجياً أنّ ما يُوجِّه الشخصيات أكثر ليس تحقيق اللذة، بل الاستحواذ في ذاته. ليست الرغبة في اللذة، بل رغبة الظفر هي ما يقودُ الرِّهان. ما كانَ يبدو أوّلاً بمَرح لعبة مُتحرّرة جنسياً، يتحوّلُ تدريجياً، وبطريقةٍ حتمية إلى صراعٍ مع الحياة والموت. لكن، ما الجامع المشترَك بيْن الصراع ومذهب اللذة؟ كتَبَ أبيقور: «لا يصْبو الإنسانُ الحكيم إلى أيِّ نشاطٍ يُفضي إلى الصِّراع».

ليس البناءُ التراسُلي لرواية العلاقات الخطيرة مجرّدَ إجراءٍ تقني كان مُمْكناً تعويضه بآخر. إنّ هذا البناء مُعبِّرٌ في ذاته، يُخبرنا أنّ كلَّ ما عاشته الشخصيات، عاشته لِتحكيه، وتنقله، وتنشرَهُ، وتبوحَ به، وتكتبَه. في مِثل هذا العالَم، حيث كلُّ شيءٍ يُحْكى، يكونُ السّلاحُ الطيِّعُ والقاتلُ، في آن، هو الذيوع. يَبعثُ

Twitter: @ketab_n

فالمون، بطل الرواية، برسالة إلى المرأة التي فتَنها مُعلناً انفصاله عنها، رسالة تُدمِّرها؛ الواقع أنّ صديقتها، الماركيزة دو مرتوي، هي مَن أمْلتْها عليه كلمة كلمة. بعد ذلك تُطلِعُ مرتوي، بدافع الانتقام، مُنافسَ فالمون على رسالةٍ حميمة بعث بها إليها هذا الأخير، فيدعوه المنافسُ، المُغرمُ بالماركيزة، باستفزاز إلى نزالٍ حُسِم بمقتل فالمون. بعد مقتله، سوف تُذاعُ رسائلُ حميمة بينه وبيْن مرتوي، وهكذا سوف تقضي، في إذلال، ما تبقّى من حياتها، طريدةً ومنبوذة.

لا شيءَ في تلك الرواية يبقى سرّاً مُقتصراً على اثنين. يبدو الجميع كما لو أنّهم وسطَ صَدَفة تَرُدّ الصَّدى، حيث كلُّ كلمةٍ ملفوظة ترنُّ، وما إنْ ترنّ حتّى تتضاعَف إلى أصداء عديدة ولا نهائية. لمّا كنتُ صبياً، قيل لي إنّ تقريبَ صَدَفة من أذني سوف يُسمعني الهديرَ السحيقَ للبحر. كذلك هي الحال في عالَم لاكلوس، كلُّ كلمة منطوقة تظلُّ مسموعة إلى الأبد. أهُو ذا القرنُ الثامن عشر؟ أهي ذي فردوسُ اللذة؟ أو هل يحيا الإنسان منذ الأزل، مِن غير أنْ يدري، في مثل هذه الصَّدَفة التي تَردُّ الصّدى؟ على كلٍّ، إنّ تلك الصَّدفة ليست عالَم أبيقور الذي يومئُ لِمُريديه «سوف تعيشون مُتخفّين».

4

موظَّفُ الاستقبال شخصٌ لبق، أكثر ممّا هو مألوفٌ في

Twitter: @ketab_n

الفنادق. لمّا تذكّرَ أنّنا حللنا بهذا المكان قبل سنتين، أطلعَنا على أشياءَ كثيرة طالها التغيير، منها إعدادُ قاعة للمحاضرات خاصّة بندوات تشملُ مختلِف المجالات، وبناءُ مسبحٍ جميل. يدفعنا الفضول لرؤيته، فنعبُر بَهواً يشِعّ بالضوء، به كوى كبيرة مُطلة على الحديقة. في أقصى البهو سُلّمٌ واسعُ الدّرَج ينحدرُ نحو مسبح شاسع، مُبلّط، ذي سقف زجاجي. فيرا تُذكّرُني: «لقد كان بهذا المكان، في المرّة الأخيرة، حديقة صغيرة للورد».

نُودِعُ الحقيبة بغرفتنا ونخرجُ إلى الحديقة. الأرصفة الخضراء تنحدرُ صوب نهر السين. المنظر بهيّ، يُذهلنا، فتحذونا رغبة الخروج في نزهة طويلة. بعد دقائق معدودة، تنبثقُ طريق بخطٍّ طويل من السيارات، فنعود أدراجنا.

وجبة العشاء فاخرة، الجميع بلباس أنيق كما لو أنّهم يريدون الاحتفاء بذكرى الزمن الغابر التي تُرفرف تحت سقف القاعة. إلى جوارنا تجلسُ أسرةٌ من طفلين. أحدُهما يُغنّي بصوتٍ مُرتفع. وعندما ينحني النادلُ على الطاولة، بصينيةٍ في يده، تومئُ له الأمّ بنظرةٍ كي ينبس بكلمة إطراء في حقّ الطفل الذي يقفُ على الكرسي، مُنتشياً بكونه محطّ أنظار، يرفعُ صوته أكثر، فترتسمُ على مُحيّا الأب ابتسامة ابتهاج.

على مائدة العشاء، نبيذ بوردو الجيّد، شرائح إوزّ، وحلوى - يتفرّدُ الفندق بإعدادها - نُسهِبُ في الحديث برضى تامّ، لا نُبالي بشيء. بالعودة إلى الغرفة أديرُ جهازَ التلفاز. أطفالٌ أيضاً على الشاشة، لكن ببشرة سوداء هذه المرّة، وفي حالة احتضار.

Twitter: @ketab_n

إقامتنا بالفندق تُصادفُ تلك الفترة التي كانت تُذاع فيها يومياً، على امتداد أسابيع، صورُ أطفال بلدٍ إفريقي نسيتُ اسمه (كان ذلك على الأقلّ قبل سنتيْن أو ثلاث، فكيف نظلُّ محتفظين بكلّ تلك الأسماء!) دمّرتْه الحربُ الأهلية وفتكت به المجاعة. الأطفالُ نحيفون ومنهكون، لا قوّةَ لهم حتّى على إزاحة الذباب الذي يتجوّلُ على وجوههم.

«أئمّة أيضاً كبارٌ يموتون في هذا البلد؟» تسألني فيرا.

لا، لا. ما يُثيرُ الاهتمام في هذه المجاعة، ويجعلها فريدةً من بين ملايين المجاعات التي عرفتها البشرية أنها تفتك بالأطفال فقط. لا راشدَ شاهدناه يتألّم، وإنْ تابعنا الأخبار، يومياً، على الشاشة، للتأكّد تحديداً من هذه الوضعية الفريدة غير المسبوقة.

طبيعي إذاً، أنْ ليْسَ الراشدون مَن تمرَّدَ على قسوةِ الشيوخ، بل أطفالٌ صغار بكلّ العفوية التي تُميّزهم. أطلقوا حملتهم الشهيرة بشعار «أطفال أوروبا يُرسلون الأرز إلى أطفال الصومال». الصومال، هو لا غيره! هذا الشعار الشهير جعلني أتذكّر الاسم المنسي! آه، من المؤسف أن يكون النسيانُ قد طوَى كلَّ ذلك. هكذا اشترَى الأطفالُ كمية هائلة من عُلب الأرز، بعد أنْ وفّرت لهم الأسَر المال، لتأثرها بإحساس التضامن الكوني الذي كان يَغمُر صغارَها، وقدّمت لهم المؤسسات يدَ العون، تمَّ تجميع العُلب في المدارس، منها نُقلت إلى الموانئ كي تُشحن على البواخر التي انطلقت في اتجاه إفريقيا، وأمْكن للعالم أجمع أنْ يُتابع الملحمة المجيدة للأرز.

Twitter: @ketab_n

مُباشرةً بعد الأطفال المحتضرين، تكتسحُ الشاشةَ صورُ صبيات تتراوحُ أعمارهن بين ستّ وثمان سنوات، بلباسٍ ترتدينه على طريقة الكبار، وتتصرّفن بودّ العجائز المتدللات. آه كم هو ساحرٌ ومؤثر وطريف أن يتصرّف الصغار على طريقة الكبار؛ الصبايا والصبيان يتبادلون القبَل، ثمّ يظهر رجلٌ يحمِلُ رضيعاً بين ذراعيه، وفي الأثناء التي يشرح لنا فيها الطريقة المُثلى لغسل القماش الذي بلّله الرضيعُ للتوّ، تدنو منه امرأةٌ جميلة، تُفرجُ فمَها، تُخرجُ لساناً شبقاً على نحو مُريع، يأخذ في اختراق الفم الساذج لحامل الرضيع.

«لِننم»، تقول فيرا ثم تُقفلُ التلفاز.

5

هرَعُ أطفال فرنسا إلى نجدة زملائهم الأفارقة يُذكّرني دوماً بوجْه المُثقف بيرك. تلك كانت أيّامُ مجده. وكما هي الحال، غالباً، مع المجد، فقد نجَم لديه عن فشل. لنتذكّر أنّ العالَم في الثمانينيات من هذا القرن، شهد انتشارَ وباءٍ سُمّي الإيدز، ينتقل في أثناء الممارسة الجنسية، تفشّى أساساً بين الشواذ في البدء. رأى المتعصّبون في الوباء عقاباً إلهياً عادلاً وتجنّبوا المرضى كما يُتجنّبُ المُصابُ بالطاعون، فيما تصدّى أصحابُ العقول المتسامحة لهذا التعصّب، فعبّروا عن مُساندتهم للمرضى، وسعَوا إلى إثبات ألا خطر في الاحتكاك بالمصابين. هكذا تناوَلَ النائبُ

Twitter: @ketab_n

البرلماني دوبيرك والمثقف بيرك وجبة غذاء مع مجموعة من المصابين بالإيدز في مطعم باريسي شهير. جَرت الوجبة في جوّ رائع، ولئلا يُفوّت دوبيرك أيّ فرصة من غير أن يُقدّم نفسه مَثلاً يُحتذى، حرَص على حضور الكاميرات لحظة تناوُل الحلوى. بمُجرّد ظهور الكاميرات بعتبة المطعم، هبَّ واقفاً، ثمّ اقتربَ من أحَد المرضى، أوقفه وقبّله على فمه الذي كان مازال مليئاً بزبَد الشكولاتة. كان ذلك مُباغتاً لبيرك. فقد فهم فوراً أنّ قبلة دوبيرك الكبيرة أصبحت بمُجرّد التقاط الكاميرا لها وتسجيلها إنجازاً خالداً. لذلك قام من مقعده وفكّرَ بعمق ما إذا كان عليه هو أيضاً أنْ يُقبّل أحَد المُصابين. أبْعدَ، في المرحلة الأولى لتفكيره، هذا الإغواء، لأنّه لمْ يكن، في قرارة نفسه، متأكّداً تماماً أنّ القبلة ليست مُعْدية؛ في المرحلة الثانية، قرّر التخلّي عن احترازه، مُقدّراً أنّ صورةَ القبلة تستحقّ المُخاطرة، ولكن في المرحلة الثالثة أثنتْه عن الاقتراب من فم المُصاب الفكرة الآتية: إنْ هو قبَّل أيضاً مريضاً، لن يُصبح مع ذلك نِدّاً لدوبيرك، على العكس، سوف ينحطّ إلى مُقلِّد وتابع، بل إلى خادم يُلمِّعُ، بمحاكاة مُتسرِّعة، مجْدَ غيره. لذلك اكتفى بأنْ مكثَ واقفاً، مُبتسماً ببلاهة. إلا أنّ تلك الثواني المعدودة من تردُّده كلّفته غالياً، لأنّ عدسة الكاميرا التقطتها، وفي نشرة الأخبار المُصوّرة، قرأت فرنسا بكاملها على وجهه المراحل الثلاث لارتباكه، وضحكت منه بهُزء. غير أنّ فكرةَ الأطفال وهُم يجمعون عُلب الأرز لمساعدة الصومال لاحت له، أسعفتْه في اللحظة الحَرجة. هكذا

Twitter: @ketab_n

استغلّ كلَّ فرصة ليُردّدَ العبارةَ الجميلة: «وحدهم الأطفال ينعمون بحياةٍ تسودها الحقيقة»، ثمّ سافر بعد ذلك إلى إفريقيا، حيث التُقِطت له صورةٌ إلى جوار صبية سوداء تحتضر والذباب يكتسح وجهها. انتشرت الصورةُ في العالَم بأسره، أصبحت أكثر شهرةً مِنْ صورةِ دوبيرك وهو يُقبِّلُ مُصاباً بالإيدز، لأنّ لِصغيرٍ يحتضر قيمة تفوقُ أكثر كبيراً في الوضعية ذاتها. إنّها حقيقة فاتت أيضاً في تلك الفترة دوبيرك، مع ذلك لم يشعر أنّه انهزم. بعد أيّام قليلة، ظهر على شاشة التلفاز، وقد عنّت له فكرة أن يدعو، هو المسيحي المُمارس للشعائر الدينية، بيرك، الذي يَعرفُ إلحادَه، إلى أن يحملَ معه شمعة، أي أن يدعوه إلى ما ينحني له أكثرُ الملاحدة تشدّداً. خلال المُقابلة التي جمعته بالصَّحَفي المكلّف بالبرنامج، أخرج دوبيرك شمعة من جيبه وأشعلها، وحتى يطمس بمكر الحظوةَ التي نالتها انشغالاتُ بيرك بالبلدان الحارّة النائية، تحدّثَ عن بؤس أطفالنا، أطفال القرى والضواحي، ودعا مواطنيه إلى النزول إلى الشارع بشمعة في اليد من أجل مسيرةٍ ضخمة عبر مختلف شوارع باريس، تعبيراً عن التضامن مع معاناة الأطفال. لأجل ذلك دعا (بمرح مكتوم) بيرك بالاسم إلى أن ينضمّ إليه في مقدّمة الموكب. كان على بيرك أن يختار، إمّا أن يُشارك في المسيرة بشمعة في اليد مثل طفلٍ في جوقة دوبيرك، وإمّا أن يتغيّب فيتعرّض للاستنكار. وقد تطلّب الإفلاتُ من ذلك الكمين سلوكاً أكثر جرأةً ممّا هو مُتوقع، إذ قرّر بيرك الإقلاع فوراً صوب بلدٍ آسيوي يشهد ثورةً شعبية، مُصمِّماً أن يصرخ فيها

Twitter: @ketab_n

عالياً وبوضوح، معلناً دَعْمه للمضطهَدين. المؤسف أنّ الجغرافيا كانت دوماً نقطة ضعفه، العالَم، بالنسبة إليه، يتوزّع إلى منطقتين؛ فرنسا من جهة، وفي الجهة الأخرى أقاليم غامضة تختلط دوماً لديه، هكذا حطّ ببلدٍ آخر يعمُّه سكونٌ مُقرف، حيث كان المطار في أحد الجبال شديدَ البرودة، والخدمة التي يُقدّمها ضعيفة، فكان عليه أن يمكث ثمانية أيّام في انتظار موعد الطائرة التي نقلته إلى باريس وقد أضناه الجوع وأصابته نزلة برد.

«بيرك هو أمير شهداء الراقصين»، يُعلّق بونتوفان.

مفهوم الراقص لمْ يكن معروفاً إلا في حلقة أصدقاء بونتوفان الضيقة. إنّه ابتكارُه الكبير، من المؤسف ألا يكون بلوره إطلاقاً في كتاب، ولا اقترحه موضوعاً لندواتٍ دولية. هو لا يكترث بالصيت الجماهيري. في حين يُصغي إليه أصدقاؤه باهتمام مُسلٍّ.

6

كلّ الساسة اليوم، حسب بونتوفان، راقصون بوجهٍ مّا، وكلُّ الراقصين يتعاطون السياسة. مع ذلك، لا ينبغي الخلط بينهما. ما به يتميّز الراقص عن رجل السياسة أنّ الأوّل لا يطمح إلى السلطة، وإنّما إلى المجد، لا يصبو إلى أن يفرض على العالَم هذا النظام الاجتماعي أو ذاك (إنه غير معني بهذا الأمر) بل أن يحتلّ المسرح كي يجعل أناه تتألّق.

Twitter: @ketab_n

لاحتلال المسرح، يتعيَّنُ صدُّ الآخرين، ممّا يفترضُ تقنية صراعٍ خاصّ. يُسمّي بونتوفان الصراع الذي يخوضه الراقص بالجيد والأخلاقي. الراقصُ يتحدّى الجميع، مَنْ يقوى على أن يبدو أكثر أخلاقاً (أكثر شجاعة ونزاهة وإخلاصاً واستعداداً للتضحية، وأكثر صدقاً) منه؟ إنّه يُدبِّرُ كلَّ المواقف التي تسمح له بجعل الآخر في وضعية أدنى أخلاقياً.

إذا أمْكن لراقصٍ أن ينخرط في اللعبة السياسية، سوف يرفضُ علناً المُفاوضات السِّرية (التي هي، دوماً، المجال الحقيقي لِلُعبةِ السياسَة) بعَدّها كذباً ولؤماً ونفاقاً ودناءة. سوف يُقدّمُ مقترحاته على المنصة علانية وهو يُغنّي ويرقص، سوف يُعيِّنُ الآخرين بالاسم داعياً إيّاهم أنْ يسلكوا نهجَه، لا سرّاً، وهو ما أشدِّد عليه، (حتى يتأتّى للآخر التفكير وتقديم اقتراحات مُضادّة) بل علناً، وعلى نحو مُباغت إن أمْكن، مُعلناً: «هل أنتم مستعدّون فوراً للتخلّي (مثلي) عن مُرتَّب شهر مارس لفائدة أطفال الصومال؟». لن يكون للجمهور المباغَت إلا احتمالين؛ إمّا الرفض الذي يُقلّلُ مِنْ شأن هذا الجمهور ويُقدّمُه بوصفهِ عدوّاً لأطفالِ الصومال، أو قول «نعم» بارتباكٍ فظيع، لنْ يَفوتَ الكاميرا أنْ تُبرزَهُ بمَكْرٍ، كما أبرزت تردُّدَ المسكين بيرك في نهايةِ وجبةِ الغذاء مع المُصابين بالإيدز. «لِمَ تلوذ بالصمت، دكتور هـ.، بينما حقوقُ الإنسان تُنتَهكُ في بلدك؟». بمُباغتة الدكتور هـ. بهذا السؤال، وهو منهمِكٌ في إجراءِ عمليةٍ جراحية لأحَد المَرضَى، ما كان بإمكانه أن يُجيب، لكن بَعْد أنْ خاط البطنَ

Twitter: @ketab_n

المفتوح، تملّكه إحساسٌ بالخِزي مِنْ صمته الذي قطعَهُ بكلِّ ما كان مُنتَظراً أن يُسمَع منه وأكثر، وهو ما جعلَ الراقصَ الذي أسْهَبَ في تأنيبه (وهذا وضعٌ آخرُ في الجيدو الأخلاقي، مُرعبٌ بوجهٍ خاصّ) يُرخي قبضتَهُ ليقول: «أخيراً، وإنْ تمَّ ذلك بعد أوانه نوعاً ما...»

قد يحدُثُ (في الأنظمة الديكتاتورية مثلاً) أن يكون التصريحُ العَلني بالموقف خطيراً. لكنَّ الأمْرَ بالنسبة إلى الرّاقص يَبقى، مقارنة بغيره، أقلّ خطورة. حَرَكتُه تحت الأضواء، أمام الملإ، تجعله مَحمياً بالاهتمام الذي يُثيرُهُ لدَى الجميع، إنّ له مُعجَبين مجهولين لا يتردّدون في الاستجابة لندائه البهيّ والعفوي، فيُوقّعون عرائض، ويُشاركون في تجمُّعات محظورة، ويتظاهرون في الشارع العامّ. وهو ما سوفَ يُعرّضُهُم لمُعاملاتٍ قاسية، أمّا الراقص، فلنْ يستسلِمَ أبداً للإغواء العاطفي بمؤاخذةِ نفسه على ما تسبّب فيه من معاناة لهم، لأنّه يعلم أنّ قضية سامية أهمّ من حياة هذا أو ذاك.

يعترضُ فانسون على بونتوفان قائلاً: «معلومٌ أنّك تمقتُ بيرك، ونحن نوافقك على ذلك. غير أنّه وإنْ كان حقيراً، فقد سانَد قضايا نعتبرها نحن أيضاً عادلة، أو إن شئت، غرورُهُ هو ما ساندَها. لذلك أسألك: إذا كنتَ ستشاركُ في جدل عمومي، وتثير الانتباه إلى آفةٍ مّا وتُساعد مُضطهَداً، فكيف يستقيم لك الأمر ما لمْ تكن راقصاً أو تظهَرَ كذلك؟».

يردُّ بونتوفان الغريب قائلاً: «إنّك تُخطئ إنْ اعتقدت أنّني

Twitter: @ketab_n

أرومُ مُهاجمة الراقصين. على العكس، أنا أدافع عنهم. مَن يُثيرون تقزُّزه ويسعَى إلى تحقيرهم سوف يصطدمُ دوماً بعقبةٍ لا تُقهر، أي بنزاهتهم، لأنّ الظهورَ الدائم للراقص أمام الجمهور يجعله فوق المُؤاخذة. هو، خلافاً لفاوست، لمْ يعقد تحالفاً مع الشيطان بل مع الملاك، ساعياً إلى أن يجعل من حياته تحفة فنية، على هذا السعي يتركّز عوْن الملاك، لأنّ الرقص، وعليك ألا تنسى ذلك، فنّ! الجوهر الحقيقي للراقص يكمن في هاجسه أن يرَى حياتَه الخاصّة تحفة فنية، هو لا يُعلِّم الأخلاق، بل يَرقُصُها. يسعى إلى إثارة العالَم وإبهاره بجمال حياته. إنّه عاشقُ حياته، مثلما يُمْكنُ لنحّات أن يكون عاشقاً لمنحوتةٍ وهو مُنهمكٌ في تشكيلها».

7

أتساءلُ لِمَ لا ينشرُ بونتوفان هذه الأفكار الهامّة. فليس لهذا المؤرّخ، الحاصل على دكتوراه في الآداب، ما يمنعه، إذ يقضي يومه ضجِراً بمكتبه داخل المكتبة الوطنية. ألا يكترث بنشر نظرياته؟ أقلّ ما يُقال في الجواب إنّ التفكير في نشرها يثيرُ فيه الرّعب. مَن ينشرُ أفكاره بين الناس مُهدَّدٌ تبعاً لذلك بحَمْل الآخرين على الإيمان به وبالتأثير فيهم، من ثمّ يجد نفسه مُتقمّصاً دور أولئك الذين يتطلّعون إلى تغيير العالَم. تغيير العالَم! يا له – يرَى بونتوفان– من قصْدٍ مُرعب، لا لأنّ العالَم في صورته الراهنة

Twitter: @ketab_n

يُثير الرّضى، بل لأنّ كلّ تغيير يقود حتماً نحو الأسوأ. من وجهة نظر أنانية، كلُّ فكرةٍ تُنشرُ بين الناس، سوف تنقلب، إن عاجلاً أو آجلاً، ضدّ صاحبها، وتُصادِرُ لذته في كونه بلورها. ذلك أنّ بونتوفان واحدٌ من أكبر مُريدي أبيقور، يبتكرُ أفكارَه ويبلورها من أجل المتعة وحسب. لا يحتقرُ البشرية التي تمثلُ بالنسبة إليه مورداً لا ينضب من الأفكار الماكرة على نحو مُبهج، لكنّه لا يشعر بأدنى رغبة في نسج علاقةٍ معها ولو على نطاق ضيّق. إنّه مُحاطٌ بعصابة من زملائه، يلتقون بمقهى غاسكون، وتلك العيّنة من البشر تكفيه.

فانسون، من بين زملاء بونتوفان، الأكثر براءة وهو أيضاً مَن يُثير الاهتمام. أكنّ له كلَّ الودّ ولا أؤاخِذه (بقليل من الغيرة، وهذا صحيح) إلا على المحبّة المفرطة، في رأيي، التي يُضمرها على طريقة الشباب لبونتوفان. غير أنّ لهذه الصداقة ذاتها شيئاً مثيراً. يتحدثان في مواضيع عديدة تستأثر باهتمامهما في الفلسفة والسياسة والكتب، لذلك يكون فانسون سعيداً عندما ينفرد به، يُعالج آراء جريئة ومُستفِزّة، يحرصُ بونتوفان، مأخوذاً هو أيضاً بتلك المواضيع، على تقويم أخطاء مُريده وتوجيهه وتشجيعه. لكن يكفي أن يلتحق بهما أحدٌ لينقلب مزاج فانسون، لأنّ بونتوفان يُصبح للتوّ شخصاً آخر، يتحدث بصوتٍ مُرتفع، يغدو مُسلّياً أكثر ممّا يحتمله فانسون.

وحدهما، مثلاً، في المقهى، يسأله فانسون «كيف تنظر، بصدق، لما يجري في الصومال؟» فيُقدِّم له بونتوفان بأناة

Twitter: @ketab_n

محاضرة عن إفريقيا، في حين يُثير فانسون اعتراضات، ثم يحتدّ النقاش بينهما، لربما يتخلّله الهزل أيضاً، لكن من غير أن يُغلّباه، حَسْبُهما فقط أن يمنحا نفسيْهما بذلك لحظاتِ انبساط خلال حوار جدّي للغاية.

يحُلُّ ماشو مصحوباً بامرأة جميلة مجهولة. غير أنّ فانسون لايزال يريدُ مواصَلة النقاش: «لكن، قل لي بونتوفان، ألا تعتقِد أنّك تُخطئ عندما تزعم...» ويُبلورُ سجالاً مهمّاً في نقد نظريات صديقه.

يصمتُ بونتوفان لفترةٍ طويلة. إنّه خبيرٌ في تدبير الصمت. يُدركُ أنّ وحدهم مَن يتملّكهم الخجل يخافون الصمت فيُعجِّلون، عندما لا يعرفون إلا أن يُجيبوا، بعباراتٍ مُرتبكة تجعلهم موضوعَ سخرية. بونتوفان يُجيدُ الصمت، الكواكبُ ذاتها تنتظرُ بفارغ الصّبر جوابَه. من غير أن ينبس بكلمة واحدة، يُوجِّهُ نظرةً صوب فانسون الذي، لأمرٍ غير معلوم، يخفض بصره، ثمّ يُحوّل بونتوفان نظره جهة المرأة، يُصوّبه مرّةً أخرى نحو فانسون باهتمام مُفتعَل، ثمّ يقول: «طريقة إلحاحك، بحضور امرأة، على أفكارٍ مُفرطة في الوضوح دليل على نكوصٍ مُقلق لليبيدو عندك».

على مُحيا ماشو ترتسمُ ابتسامته الماكرة المعروفة، فيما المرأة الجميلة تُصوّبُ نحو فانسون نظرة تسلٍّ مُشفقة باستعلاء، أمّا هو فيحمرّ وجْهُه لإحساسه بالاستخفاف؛ الصديق الذي خصَّهُ، قبْل دقائق قليلة، باهتمام بالغ أصبح مُهيّأ فجأة لإغراقه

Twitter: @ketab_n

في حالةِ ارتباك، لا لشيء إلا لإثارة إعجاب امرأة.

بعد ذلك، يصلُ أصدقاءُ آخرون، يأخذون أماكنهم وينخرطون في الثرثرة؛ ماشو يروي نكتاً، غوجار يعرضُ معرفته الواسعة بالكتب عبر ملاحظات صغيرة جافّة، وبضع نساء يكتمْنَ ضحِكهُنّ. يُحافظ بونتوفان على صمته، يَدَعُهُ يختمِر قبل أن يقول: «لا تكفُّ عشيقتي عن مُطالبتي بسلوكٍ فظّ».

يا إلهي، ما أمْهَرَهُ في قول ذلك. حتى زبائن الطاولات المُجاورة لزموا الصمت، مُتلهّفين، وقد انفجر الضحك في الأرجاء، لسماع بونتوفان. ما الغريب في أن تُطالبه صديقته بسلوك فظ؟ يكمُن السرّ في سحر الصوت، وهو ما يُثير لدى فانسون غيرةً لمْ يقوَ على التحرّر منها، لأنّ صوتَه، مقارنة بصوتِ بونتوفان، يبدو مثل مزمار معطوب يجْهدُ في منافسة كمانٍ مُطرب. بونتوفان يتحدثُ بصوت خافت من غير أن يرفعه أبداً، يعُمّ بخفوته أرجاءَ القاعة، يَحْجُبُ ضجيجَ العالَم ويمنعُهُ من أنْ يبقى مسموعاً.

يواصلُ بونتوفان: «بسلوكٍ فظ... لكنني عاجزٌ عن ذلك! لستُ فظّاً! أنا لطيفٌ للغاية!»

تستمرّ جلجلة الضحك في الأرجاء، يصمت بونتوفان مُتيحاً الاستمتاع بهذه الجلجلة.

ثمّ يقول: «مِن وقتٍ إلى آخر، تزورُني راقنة شابّة. مرّةً وأنا أمْلي عليها ما ترقنه، أمْسِكُ بها فجأة من شعَرها بعزيمة قوية، أنهِضُها وأسحَبُها نحو السرير، قبل بلوغه أتركها، وقد انفجرتُ

Twitter: @ketab_n

ضحكاً. آه، يا للخلط، أنتِ لستِ مَن أرادتني فظّاً، آه، اسمحي لي سيدتي!»

المقهى بكامله ينفجرُ ضحكاً بما فيهم فانسون الذي يُحبّ من جديد مُعلِّمَه.

8

ومع ذلك، يقول له، في الغد، بنبرة تأنيب: «بونتوفان، لستَ فقط مُنظّراً كبيراً للراقصين، بل أنتَ نفسُك راقصٌ كبير»

بونتوفان (متضايقاً نوعاً ما): «إنّك تخلطُ المفاهيم»

فانسون: «عندما أكونُ برفقتك، ما إنْ يلتحقُ بنا أحدٌ حتى ينقسم المكان الذي به نوجدُ قسمين؛ الوافدُ وأنا نغدو مُتفرِّجيْن، وتغدو أنت على خشبة المسرح».

بونتوفان: «أقول لك إنّك تخلط المفاهيم. مُصطلح الراقص ينطبقُ حصرياً على الاستعراضيين في الحياة العامّة. أمّا أنا فأمقتُ الحياة العامّة».

فانسون: «لقد تصرّفتَ، أمس، أمام تلك المرأة مثلما يتصرّف بيرك أمام الكاميرا. سعيتَ إلى توجيه كلِّ اهتمامها نحوك. أردتَ أن تكونَ الأفضل، والأكثر ودّاً. واستخدمتَ ضدّي الجيدو الأكثر ابتذالاً لدى الاستعراضيين».

بونتوفان: «لربّما جيدو الاستعراضيين، ولكن ليس الجيدو الأخلاقي. لهذا السبب، تُخطئ بتصنيفي راقصاً. الراقص يسعى

Twitter: @ketab_n

إلى أن يكون أرقى من الآخرين أخلاقياً، في حين سعيتُ إلى أنْ أظهر أسوأ منك».

فانسون: «الراقص يسعى إلى أن يظهر أرقى أخلاقياً، لأنّ جمهورهُ العريض ساذجٌ يعتبرُ الحركاتِ الأخلاقية رائعة، في حين أنّ جمهورنا القليل مُنحرفٌ، شغوفٌ باللاأخلاقي. أنت، إذاً، استخدمتَ ضدّي الجيدو الأخلاقي، وهذا لا يتعارَضُ إطلاقاً مع جوهرك كراقص».

بونتوفان (فجأة، بنبرة أخرى صادقة): «معذرة إنْ أسأتُ إليك، فانسون».

فانسون (متأثراً فوراً باعتذار بونتوفان): «لا داعي للاعتذار، أعلمُ أنّك كنتَ تمزح».

ليس صدفة أنْ يلتقي الجميع بمقهى غاسكون. فمِن بين مُعلّميهم المُبجَّلين، يُعدُّ أرتنان الأسمى، مُعلّم الصداقة، القيمة الوحيدة التي يعتبرونها مُقدّسة.

يُواصلُ بونتوفان: «كلُّ واحدٍ مِنّا يحملُ داخله راقصاً بالمعنى الواسع للكلمة (أنتَ على حقّ هنا). أقرُّ معك أنّي أصبحُ، كلما أقبلت امرأة، راقصاً عشر مرّات أكثر من الآخرين. بمَ يُمْكنُ أنْ أتصدّى لهذا الأمر؟ إنّه يتجاوزني».

يضحك فانسون، أكثر فأكثر، بودّ، فيما يُواصلُ بونتوفان بنبرةِ مَن يُقرُّ بذنبه: «من ناحية أخرى، إذا كنتُ، كما قلتَ للتوّ، المُنظّر الكبير للراقصين، فمن الضروري أن يكون بينهم وبيني

Twitter: @ketab_n

قاسمٌ مشتركٌ صغير، بدونه يتمنّعُ عليّ فهمهم. صحيح، أعترفُ لك بذلك فانسون».

في هذه المرحلة، يتحوّلُ بونتوفان من صديقٍ نادم إلى مُنظّر، حيث يقول: «لكنه مُجرّد قاسم مشتركٍ صغير، لأنّ المعنى الدقيق الذي به أستعملُ المصطلح يُبْعِدُني تماماً عن الراقص. ليس ممكناً فقط، بل من المُرجّح أيضاً، على ما أعتقد، أنْ يتحرّر راقصٌ حقيقي، مثل بيرك ودوبيرك، من كلِّ رغبةٍ في التظاهر والإغواء أمام امرأة. لن تُراودَهُ فكرة أن يحكي قصّة راقنة سَحَبها من شعرها نحو السرير بعد أن التبست لديه بأخرى. الجمهور الذي يُريدُ إغواءَهُ ليس مجموعة صغيرة محدّدة ومرئية من النساء. اِنتبه، يتعلّقُ الأمْرُ بفصلٍ يتطلّبُ أنْ نُبلورَهُ عن نظرية الراقص، يخصُّ الجمهورَ اللامرئي! فيه تكمنُ الحداثة المُرعبة لهذه الشخصية! إنّه لا يستعرضُ أمامي أو أمامك، بل أمام العالَم بأسره. لكن ما العالَم بأسْره؟ لا نهائيٌّ بلا وجوهٍ هو! إنّه تجريد!»

في منتصف نقاشهم، يُقبلُ غوجار رفقة ماشو الذي يُخاطبُ منذ عتبة الباب فانسون قائلاً: «قلتَ لي إنّك مدعوّ إلى المؤتمر الكبير لعلماء الحشرات. لديّ خبرٌ يهمّك، سيكونُ بيرك ضمن المشاركين».

بونتوفان: «هو مرّةً أخرى؟ إنّه في كلِّ مكان».

فانسون: «ما الذي يُمْكنُ أن يقوم به في مؤتمر كهذا؟»

غوجار: «لقد تردَّد بيرك، لمّا كان طالباً، لمدّة سنة على

Twitter: @ketab_n

مدرسة البحوث العليا في علم الحشرات. خلال هذا المؤتمر، سوفَ يحظى برتبة عالم حشرات فخري».

بونتوفان: «علينا أن نحْضُرَ لزرع الفوضى!»، ثم التفت إلى فانسون: «سوف تُؤمِّن تسلّلنا جميعاً إلى المؤتمر».

9

تستسلم فيرا للنوم، أمّا أنا فأفتح النافذة التي تُطلُّ على الحديقة، أفكّرُ في الجولة التي قامت بها السيدة ت. والفارس الشابّ بعد خروجهما ليلاً من القصر، جولة، من ثلاث مراحل، لا تُنسَى.

في المرحلة الأولى، يتنزّهان وهي تتأبّطُ ذراعه، يتبادلان الحديث ثم يعثران وسط الخضرة على مقعد، فوقه يُواصلان الحديث من غير أن تُفارقَ ذراعها ذراعه. القمر يتوسّطُ السماء، والحديقة بأرصفةٍ تنحدرُ نحو نهر السين الذي يمتزج خريره بحفيف الشجر. لِنحاول استيعابَ شذراتٍ مِمّا دارَ بينهما من حديث. يطلبُ الفارسُ قبلة. تجيبه السيدة ت.: «أنا أيضاً أرغب فيها. سوف تكونُ مزهواً للغاية إنْ أنا رفضت. كبرياؤك يجعلك تعتقدُ أنّي أخشاك».

كلُّ ما قالته السيدة ت. هو ثمرة فنّ، إنّه فنّ الحديث الذي لا يتركُ أيّ إشارةٍ من غير تعليق، مُعمِّقاً معناها. في هذه المرّة، مثلاً، تمنحُ الفارسَ القبلة التي تسحرُه، لكن بعد أنْ قيَّدت قبولها

Twitter: @ketab_n

بتأويل خاصّ، لمْ تستسلم للقبلة إلا كي تُحقّقَ لكبرياء الفارس توازنَه الصحيح.

عندما تُحوّلُ، بخبرةٍ فكرية، قبلة إلى فعلٍ للمُقاومة، لا أحدَ ينطلي عليه ذلك، ولا الفارس نفسه، غير أنّ عليه أن يأخذ كلامها على محمل الجدّ، لأنه جزءٌ من إجراءٍ فكري يتعيّنُ الاستجابة له بإجراءٍ فكري آخر. الحديث ليس تزجية للوقت، بل هو على العكس تنظيمٌ له، يتحكّمُ في الوقت ويُمْلي عليه قوانينَه الخاصّة التي ينبغي احترامها.

تنتهي المرحلة الأولى من ليلتهما على النحو الآتي: القبلة التي مَنحَتها للفارس لئلا يشعُرَ بزهوه أكثرَ ممّا ينبغي، أعقبَتها أخرى، ثم «تتالتِ القُبَل مُتخلّلة الحديث إلى أن حلّت مَحَلّه». إلا أنّ السيدة ت. سوف تنهضُ، مُقرِّرةً العودةَ إلى القصر.

يا له من إخراجٍ مسرحي مُتقن! لقد كان ضرورياً بعد التلاحم الأوّل للحواسّ، إظهار أنّ المُضاجعة لمْ تنضَج، مما يُعْلي من قيمتها ويجعلها مُشتهاة، كان ضرورياً خلقُ طارئ وإحداث توتّر وترقّب. لهذا تتظاهرُ السيدة ت.، في طريق العودة صحبة الفارس إلى القصر، كما لو أنّ شيئاً لم يحدث، لأنّها واثقة في قدرتها على قلب الوضع، في آخر لحظة، وتمديد الموعد. عبارةٌ واحدة سوف تكونُ كافية لإنجاز ذلك، صيغة من تلك الصيغ التي يعِجّ فنّ البلاغة بالعشرات منها. غير أنّها تعجز، كما لو أنها تعرّضت لمؤامرة مُباغتة أو لعُسر في الإلهام، عن العثور على تلك العبارة. تُصبحُ في موقفها شبيهة بمُمثل نسيَ

Twitter: @ketab_n

فجأةً النصّ. الواقع أنّ عليها أن تستوعبه بدقة، خلافاً لما هي عليه الحال اليوم، حيث يُمْكنُ لفتاةٍ أن تُعلن لمَن معها: تشتهيني وأشتهيك، لا داعي إذاً لإضاعة الوقت. أمّا بالنسبة إليهما، فتظلّ هذه الجرأة مصطدمة بعائقٍ لا يستطيعان تخطّيه، رغم إيمانهما بالتحرّر الجنسي. إنْ هي لم تُسعفها، ولا هو أيضاً، أيّ فكرةٍ في الوقت المناسب، إنْ لم يعثرا على ذريعة تُطيلُ نزهتهما، فسيكونان مُرغمَيْن، تحت ثقل الصمت السائد بينهما، أن يعودا إلى القصر، حيث ينصرفُ كلٌّ واحدٍ إلى حال سبيله. بقدر ما يستعجلُ كلٌّ منهُما العثورَ على ذريعةٍ والتوقف لإعلانها بصوتٍ عال، بقدر ما يُصابان بالخرس، كلّ العبارات التي يُمكن أن تسعفهما تختفي، وعبثاً يستنجدان بها. لذلك لمّا اقتربا من باب القصر «تمهّلنا في الخطو، معاً، بتلقائية».

لحُسن الحظ، كما لو أنّ المُمَثل وجَد مَن هبَّ لنجْدته، تعثرُ، في آخر لحظة، على النصّ، فتبادِرُ الفارسَ قائلة: «أنا غاضبة منك...» أخيراً، أخيراً! تمّ تدارُك الوضع! تتظاهرُ بالغضب! تعثر على ذريعة هذا التظاهر الذي سوف يُمدِّدُ النزهة: لِمَ لمْ يُخبرها، هي التي كانت صادقة معه، ولو بكلمة واحدة عن عشيقته الكونتيسة؟ لا مجال للانتظار، عليها أن تستفسره بسرعة، لابدّ من الكلام! يجري الحديث من جديد، ويبتعدان عن القصر عبر مسلكٍ سوف يقودهما هذه المرّة بلا كمائن إلى حضن المضاجعة.

Twitter: @ketab_n

10

وهُما منهمكان في الحديث، ترسمُ السيدة ت. في سرِّها معالمَ الميدان وتُهيّئُ المرحلة المُقبلة للأحداث. تُلمِحُ إلى ما يتعيّنُ على رفيقها التفكير فيه، وكيف ينبغي له أن يتصرّف. تقومُ بذلك برقة وأناقة، وعلى نحو ضمني كما لو أنها كانت تتحدّث عن أمر آخر. وكي تُحرِّرَهُ من تأنيب الخيانة، جعلته يكتشفُ الأنانية المُفرطة للكونتيسة، حتى يتهيّأ بارتياح للمغامرة الليلية التي تُعِدُّ لها. في حديثها، تُرتّبُ لا فقط لليلتهما، بل أيضاً لِما بَعْدَها، كي يستوعبَ الفارسُ أنها لا تسعى، في جميع الأحوال، إلى أن تُصبح منافسة للكونتيسة التي عليه أن يُحافظ على علاقته بها. ثم تُقدّم له درساً مكثفاً عن التربية العاطفية، مفصحة له عن فلسفتها العملية في الحبّ الذي يتعيّن تحريره من سطوةِ الضوابط الأخلاقية وصيانته بالكتمان، الذي يظلّ، من بين كلّ الفضائل الأخرى، الفضيلة المُثلى، بل تنجح بتلقائية حتى في أنْ تشرح له كيف يتعيّن عليه أن يتصرّف مع زوجها غداً.

لكُم أن تتساءلوا باستغراب: في فضاءٍ مُنظّم بإحكام، مرسومِ المعالم، خاضعٍ للتخطيط والتدبير والقياس، أيُّ مكانٍ يبقى للتلقائية و«الجنون»، أين الهذيان، وعمَى المتعة، و«الحبّ المجنون» الذي شغفَ السورياليين، أين نسيان الذات؟ أين هي كلّ فضائل اللاعقل، تلك التي بَنت فكرتنا عن الحبّ؟ لا مكان لها هنا، لأنّ السيدة ت. هي سيدة العقل، لا العقل القاسي

Twitter: @ketab_n

الذي مثلته السيدة دومتروي، هي، على العكس، سيدة عقل وديع حنون، عقل مهمّته صون الحبّ.

أراها تقود الفارس في ليلةٍ مُقمرة، تتوقف الآن كي تُريه مُحيط سقف يرتسمُ أمامهما في الظلمة الخفيفة، آه لِلَحظاتِ المُتع الجسدية التي كان هذا الجناحُ شاهداً عليها، لكن من المؤسف، تقول له، إنّ مفتاحه ليس بحوزتها. يقتربان من الباب فيُلفيان (يا للأمر الغريب! يا للأمر المُباغت!) الجناحَ مفتوحاً.

لِمَ قالت له إنّ المفتاح ليس بحوزتها؟ لِمَ لمْ تُخبره فوراً أنّ باب الجناح يظلّ دوماً مفتوحاً؟ كلُّ شيءٍ لديها مُرتّب، ومختلَق ومصطنع. كلّ شيء خاضعٌ لإخراج مسرحي قبْلي، لا شيء صريح البتّة. بعبارةٍ أخرى، يتعلّقُ الأمر بفنّ، وهو في هذه الحالة فنُّ تمديدِ الترقّب، أو بصيغة أفضل، فنّ المكوث أطول وقت مُمكن في حالة الإثارة.

11

لا نعثر على أيّ وصفٍ لمظهر السيدة ت. الخارجي، لكن شيئاً يبدو لي أكيداً، مع ذلك، في عمل دونون، هو أنّ السيدة ت. لا يُمكنُ أن تكونَ نحيفة. أفترضُ أنّ لها «قدّاً مُمتلئاً ورشيقاً»، (بهذه الكلمات يُحدِّد لاكلوس جسد المرأة المُشتهى أكثر في رواية العلاقات الخطيرة) وأفترض أنّ امتلاءَها الجسدي يُولِّد انسجامَ وبطءَ الحركات والإشارات. عن السيدة ت. يَصْدُرُ

Twitter: @ketab_n

تراخٍ وديع. فهي تمتلك حكمة التأنّي، تُجيد كلَّ تقنيات التمهّل. وهو ما تكشف عنه، على نحو خاصّ، بالجناح خلال المرحلة الثانية من الليلة. بعد ولوجهما الجناح، يتبادلان القبَل ويستلقيان على كنبة، عليها يُمارسان الجنس. لكن «كلَّ ذلك تمّ بنوعٍ من السرعة. فشعرنا بخطئنا (. . .) تلهُّفُنا الزائد حدَّ من التذاذنا. بلهاثنا وراء المتعة، ننسى كلَّ اللذات التي تتقدَّمها».

يشعُرَان أنّ الاستعجال الذي حرَمهُمَا من وداعة التأنّي، خطأ ارتكباه، ومع ذلك لا أعتقد أنّ الأمْرَ فاجأ السيدة ت.، بل أظنّ بالأحرى أنّها كانت على بيّنة من هذا الخطأ الذي كانت تتوقّعُه. لهذه الغاية، بَرْمَجَت المرحلة الثانية من الليلة مثل فاصلٍ يسمح بالتوقف وتقليص السرعة المتوقّعة والمُدبَّرَة للأحداث، كي يتسنّى لتجربتهما في المرحلة المُرتقبة أن تتألّق، وَسَط ديكور جديد، في كامل تأنّيها البهيّ.

توقِفُ المُضاجعة بالجناح، تخرج من جديد في نزهة صحبة الفارس، وعلى مقعدٍ وسط الخضرة أيضاً يجلسان، تستأنفُ الحديث قبل أن تستدرج الفارس إلى مقصورةٍ سرّية بالقصر مُجاورة لشقتها، الزوج مَن هيّأها، منذ سنوات خلت، هيكلاً فاتناً للحبّ. بعتبة المقصورة، يتسمّرُ الفارسُ مذهولاً، المرايا التي تغطّي كلّ الجدران تُعدِّدُ صورَتيْهما، يُحيطهما فجأة موكبٌ لا نهائي من أزواج تتبادلُ القبَل. غير أنّ المضاجعة لا تنطلق في هذا المكان، كما لو أنّ السيدة ت. أرادت أن تَحُولَ دون انفجار قويّ للحواسّ، كي تُمدِّدَ زمنَ الإثارة أقصى ما يُمكن، لذلك

Twitter: @ketab_n

تسحَبُهُ إلى الغرفة الملاصقة، المُجهّزة عن آخرها بالأرائك، هناك فقط تتمّ المُضاجعة لمدّة طويلة، بتأنٍّ حتى مطلع الفجر.

عرفت السيدة ت.، وهي تُبطئ إيقاع ليلتهما وتُقسِّمُها إلى مراحل مختلفة ومنفصلة عن بعضها، كيف تُظهرُ قائمة اللحظات الزمنية الممنوحة لهما مثل معمارٍ صغير مُذهل، أي أنْ تهَبَ اللحظات شكلاً. إنّ إعطاء شكلٍ لمُدّة زمنية مطلبٌ جمالي وهو أيضاً مطلبُ الذاكرة، لأنّ ما لا شكلَ له مُتمنّعٌ على الإمساك والتذكّر. أنْ يُدْركا لقاءَهُما بوصفه شكلاً أمرٌ يكتسي، على نحو خاصّ، قيمة عالية بالنسبة إليهما، ولا سيما أنّ على ليلتهما أنْ تظلّ بلا غد، وألا يكون مُمكناً أن تتكرّر إلا عبْر الذاكرة.

ثمة وشيجة سرّية بين البُطْء والذاكرة، كما بيْن السرعة والنسيان. لنذكر، بهذا الصدد، وضعية قد تبدو عادية للغاية: رجلٌ يسير في الشارع، ثمّ فجأة يريد تذكّر أمْرٍ ما، لكن الذاكرة لا تُسعفه. في تلك اللحظة، بطريقة آلية يتمهّلُ في الخطو. أمّا مَن يسعى إلى نسيانِ طارئ شاقّ وقعَ له توّاً، على العكس يُسرع، لا شعورياً، في مشيته، كما لو أنّه يروم الابتعاد عن طارئ ما زال، من حيث الزمن، قريباً جدّاً منه.

في الرياضيات الوجودية، تأخذ هذه التجربة شكلَ مُعادَلتين أوّليتيْن؛ تقوم الأولى على تناسُبِ درجة البُطْء مع حِدَّةِ الذاكرة، والثانية على تناسُب درجةِ السُّرعة مع حِدَّةِ النسيان.

Twitter: @ketab_n

12

طوال حياة فيفان دونون، حلقة صغيرة فقط مِن المُقرّبين منه التي، على الأرجح، كانت على علم بأنّه مؤلِّف قصة ليلة بلا غد. لن يُذاع أمْر تأليفه على الناس بوجهٍ (على الأرجح) نهائي، إلا بَعْدَ موته بزمن طويل. اللافت أنّ مصيرَ القصة شبيه على نحو غريب بالحكاية التي ترويها، إذ ظلّت القصة هي أيضاً محجوبة بعتمةِ الأسرار والكتمان والانتحال والتنكّر.

كان دونون نحّاتاً ورسّاماً وديبلوماسياً ورحّالة، خبيراً بالفن، ذا حضور قويّ في الصالونات الأدبية. لقد تمتّع بمسار لامع، غير أنه لمْ يُعلن إطلاقاً ملكيته الأدبية للقصّة. لا لأنّه رَفضَ المجد، بل لأنّ المَجْد كان آنئذٍ يعني شيئاً آخر، إذ أتخيّل أنّ الجمهور الذي كان يتوجّه إليه ويرومُ إغواءَه ليس هو الكتلة المجهولة التي يحلمُ بها الكاتب اليوم، بل هو جماعة قليلة يُمْكن لدونون أن يعرفَ شخصياً عناصرَها ويُقدِّرهم. المُتعة التي حقّقها له النجاح لدى قرائه، لا تختلفُ كثيراً عمّا استشعره أمام قلّة من المستمعين الملتفّين حوله وهو في قمّة تألّقه داخل صالون أدبي.

ثمّة مَجْدان؛ مَجْدُ ما قبل اختراع التصوير الفوتوغرافي، وما بعده. كان فاكلاف، ملِك تشيك في القرن الرابع عشر، يستمتع بالتردّد على فنادق براغ.والتحدث، مُتنكّراً، مع عامّة الناس. لقد كان يمتلك السلطة والمجد والحرية. أمّا تشارلز، أمير إنجلترا

Twitter: @ketab_n

المعاصر لنا، فلا سلطة له ولا حرية، وإنْ كان له مجْدٌ كبير. لا يُمْكنه، سواء لجأ إلى غابة لـمْ تطأها قدمٌ أو إلى مغطس مُخبّإٍ بغرفةٍ مُحصّنة تحت الأرض، أن يتجنّبَ العيون التي تترصّده وتتعرّفه. فقد التَهَمَ المجدُ كلَّ حريته، والآن يعي أنّ المُغفّلين تماماً وحْدَهُم مَنْ يَقبَلون أنْ يَجُرّوا وراءَهُم، بمحض إرادتهم، زعيقَ الشهرة.

قد تقولون إنْ تتبدّل خاصية المجد فإنّ أمْرَها لا يعني، في جميع الأحوال، إلا بعض ذوي الحظوة. إنّكم تُجانبون الصّواب. المجدُ يشغلُ كافّة الناس لا المشاهير وحسب. صور المشاهير تغطّي، اليوم، صفحات المجلات وشاشات التلفزيون، تجتاح مُتخيَّلَ الجميع. الكلُّ منشغلٌ، وهو ما لا يتأتّى إلا في الأحلام، بإمكان أنْ يُصبح موضوعَ مجد مُماثل (ليس مجدَ الملك فاكلاف الذي كان يتردّدُ على حاناتٍ صغيرة، بل مجد الأمير تشارلز المُختبئ بمغطس في باطن الأرض). إمكانٌ يُلاحقُ كلَّ واحدٍ كظلِّه، مُغيّراً نمط حياته، لأنّ (وهذا، كما هو معلوم، تحديدٌ آخر أوّلي للرياضيات الوجودية) كلَّ إمكانٍ جديد في الوجود، حتّى الأقلّ احتمالاً، يُغيّرُ الوجود بكامله.

13

ربّما أمكن لبونتوفان أن يكون أقلّ قسوة تجاه المثقف بيرك لو أخذ علماً بالإزعاج الذي سبّبته له مؤخّراً إيمّاكولاطا، رفيقة

Twitter: @ketab_n

صفّ قديمة، كان (عبثاً) أغرِمَ بها وهو تلميذ بالثانوي.

بعد عشرين سنة، رأت إيمّاكولاطا، ذات يوم، بيرك على شاشة التلفزيون وهو يُزيح الذباب عن وجه صَبية سوداء، كان ذلك بالنسبة إليها مثل إشراقة خاطفة. فأدركت توّاً أنّها كانت دوماً تُحبّه. في اليوم ذاته، بعثت إليه برسالة تُطالبه فيها بـ «الحبّ البريء» الذي جمعهما في الماضي. غير أنّ بيرك يتذكّرُ جيداً أنّ حبّه لها لمْ يكن بريئاً، بل مفرطاً، على العكس، في شهوانيته، كما يتذكّر إحساسَهُ بالإهانة لمّا صدّتْه بقسوة. إنّه، أكثر من ذلك، السبب الذي جعله يستوحي من لقبِ مُضحكٍ نوعاً ما لخادمة برتغالية لدى أسرته، الاسمَ المُستعارَ الذي أطلقه عليها، اسم قدحي وحزين: إيمّاكولاطا، أي الطاهرة. وقد كان ردُّ فِعْله تجاه رسالتها سلبياً. (أمرٌ غريب، بعد عشرين عاماً مازال لم يستسغ تماماً خيبته القديمة) فتجاهل رسالتها.

أرْبَكها صمتُه، فذكّرته في الرسالة الثانية بالكمّ الهائل من بطاقات الحبّ التي كان يبعث إليها بها، وأنّه كان سمّاها، في إحداها، «طائر الليل الذي يقطعُ أحلامي». بدَت له هذه العبارة، المنسية منذ ذلك العهد، مُزعجة على نحو لا يُطاق، ورأى من الوقاحة أنْ تُذكّرَهُ بها. بعد ذلك، فهمَ، عبر الإشاعات التي كانت تَصِله، أنّه كلّما ظهَر على شاشة التلفزيون، وهي على مائدة العشاء، أخذت هذه المرأة، التي لمْ يمْسَسْها قطُّ، في الحديث عن براءة حبّ الشهير بيرك لها، الذي كان يُصابُ، في السنوات الماضية، بالأرق، لأنّها كانت تقطع أحلامَه. لحظتها،

Twitter: @ketab_n

شعرَ بنفسه عارياً وأعزل. ولأوّل مرّةٍ في حياته تملّكته رغبة كبيرة في أنْ يكون مجهولاً.

في رسالة ثالثة، طلبت منه أنْ يُسْدي خدمة، لا لها وإنّما لجارتها المسكينة التي تعرّضت لخطإ طبّي خلال علاجها بأحَد المستشفيات. والأدهى، على نحو ما أطْلعَته، أنّ هذه المرأة لمْ تكن فقط على وشك الموت بسبب سوء تقديرٍ في عملية التخدير، بل حُرمت أيضاً من أدنى تعويض. لذلك على بيرك، إنْ كان يعتني كثيراً بالأطفال الأفارقة، أنْ يُقدِّمَ الدليلَ على استعداده للعناية أيضاً بعامّة الناس في بلده، وإنْ كان هؤلاء لا يُتيحون له أيّ فرصةٍ للاستعراض على شاشة التلفزيون.

بعد ذلك، كتبت إليه هذه المرأة نفسُها بإيعاز من إيمّاكولاطا: «. . .تذكرون، سيدي، تلك الشابّة التي كنتم كتبتم في رسالة إليها أنّها كانت بالنسبة إليكم العذراء الطاهرة التي تقطعُ أحلامكم». أيُعقلُ هذا؟ أيُعقلُ هذا؟ صرخَ بغضب وهو يذرعُ شقته من أقصاها إلى أقصاها، مزّق الرسالة، وبَصَق عليها، ثمّ ألقى بها في صندوق القمامة.

ذات يوم، أخبرَهُ مدير قناةٍ تلفزيونية أنّ مُخرجة تنوي إنجاز بورتريه عنه. حينها تذكّر بغيظ الملمحَ الساخرَ لرغبته في الاستعراض على شاشة التلفزيون، لأنّ المخرجة التي كانت تريدُ تسجيله هي طائر الليل نفسها، إيماكولاطا شخصياً! هكذا وجَدَ نفسه في وضعية مُربكة؛ فقد اعتبر إنجازَ فيلم عنه أمراً ممتازاً، من الناحية النظرية، هو الذي كان دوماً يصبو إلى تحويل حياته

Twitter: @ketab_n

إلى عملٍ فنّي. لكن، لمْ يخطر بباله، حتّى ذلك الحين، أن يكون هذا العمل منتسِباً إلى جنس الهزل. هكذا سوف يُفضّلُ، تصدّياً لهذا الخطر الذي انبثق فجأة، أنْ يُبقي إيمّاكولاطا بعيدة عن حياته أقصى ما يُمْكن، لذلك التمس من مدير القناة (الذي اندهش من تواضعه) أنْ يُرجئ هذا المشروع الذي لمْ يَحِن وقته، بالنسبة إلى شابّ ذي أهمية محدودة مثله.

14

تُذكّرني هذه الحكاية بأخرى كان لي حظّ الاطلاع عليها، يعود الفضل في ذلك إلى مكتبة غوجار التي تُغطّي كلَّ جدران شقّته. مرّةً، كنتُ أشكو له ضَجَري، فأشارَ إلى رفٍّ كُتِب عليه بخطّ يده: تُحَفٌ عن الهزل اللاإرادي، وبابتسامةٍ ماكرة سحَبَ كتاباً نشرته صِحافيّة من باريس عام 1972، تحكي فيه عن حبِّها لكيسنجر، وهو، إذا كنتم مازلتم تذكرون، رجُل السياسة الشهير في تلك الفترة، عمِلَ مستشاراً للرئيس نيكسون، وكان مهندس السلام بين أمريكا والفيتنام.

تروي الحكاية ما يلي: بواشنطن، تلتقي الصحافية بكيسنجر لإجراء حوارٍ معه لصالح إحدى المجلات أوّلاً، ثمّ لفائدة التلفزيون في ما بعد. تجمعهما لقاءاتٌ عديدة، لكن دوماً في حدود العلاقات المهنية؛ وجبة عشاء أو وجبتان لإعداد بثّ البرنامج التلفزيوني، بضع زيارات بمكتبه في البيت الأبيض،

Twitter: @ketab_n

وبمنزله الشخصي، بمفردها ثم رفقة فريق العمل. شيئاً فشيئاً، يتولّد لدى كيسنجر تضايقٌ منها، فهو ليس مُغفّلاً ويُدرك جيداً عمَّ تحوم، وحتّى يُبْقيها بعيدةً منه، يُقدِّمُ لها ملاحظاتٍ بليغة عن الجاذبية التي تُمارسُها السلطة على النساء، وعن مهامّه التي تُحتّمُ عليه الامتناع عن ربط علاقات خاصّة.

تروي الصحافية بصدقٍ مُثير كلَّ ذرائع تملّصه التي لا تثنيها عن عزمها، فهي على يقين راسخ أنّها خُلقتْ له وخُلِقَ لها. أيَظْهرُ حَذِراً ومُتحرِّزاً؟ ذلك أمْرٌ لا يُفاجئها، إذ لا ينبغي نسيان النساء المُزعجات اللواتي عرفهنّ من قبل، لا يُساورُها أدنى شكّ في أنّ مخاوفه سوف تمّحي وتختفي حيطته عندما سيُدرك مقدارَ الحبّ الذي تُكنّه له. آه، إنّها على يقين تامّ بصفاء حبّها له! يُمكنها، أكثر من ذلك، أن تُقْسم أنّ الأمْرَ لا يتعلّقُ بهاجسٍ جنسي. تكتُبُ في مؤلَّفها: «من الناحية الجنسية، لا يعني لي شيئاً»، تُكرّر مرّاتٍ عديدة (بساديةٍ أمومية غريبة) أنّه ليس أنيقاً ولا وسيماً، ذوقه، في ما يتعلّقُ بالنساء، رديء، «لا يُمْكنه أن يكون إلا عشيقاً سيئاً»، تُقرُّ بذلك، مُعلنة في الآن ذاته أنّها مولعة به. كان لها مثله طفلان، تحرصُ، من غير أن يدري، على التخطيط لعُطل مُشتركة بالكوت دازور تُتيحُ لها لقاءَه، مُبتهجة بأنْ يكون مُمكناً، وفق تخطيطها، لإبنيه أنْ يُقبلا على تعلُّم الفرنسية بسرور.

تُرسلُ، ذات يوم، فريقها المُكوَّن من مجموعة من المخرجين لِتصوير شقة كيسنجر الذي لا يتمالكُ أعصابَه فيطرُدُهم

Twitter: @ketab_n

كما لو كانوا عصابة مُزعجة. يستدْعيها مرّةً إلى مكتبه ليقول لها بنبْرةٍ صارمة وباردة، إنّه لنْ يُطيقَ إطلاقاً طريقتها المُلتبسة في مُعامَلته. إثر ذلك يُساورُها، في البدء، الإحساسُ باليأس التامّ، لكنْ سرعان ما تُمنّي نفسَها قائلة في سرِّها: بلا أدنى شكّ، يُنْظرُ إليها على أنّها تُمَثلُ خطراً سياسياً، لابدَّ أنّ كيسنجر تلقّى تعليماتٍ من أجْهزةِ التجسُّس المُضاد بأنْ يَقطَعَ صلته بها، وهو يَعْلمُ أنّ المكتبَ الذي يجمعُهما مدسوسٌ بآلاتِ التنصّت. العباراتُ القاسية، على نحو لا يُطاق، التي يتلفّظ بها ليست، إذاً، مُوجَّهة إليها، بل إلى رجال الشرطة الذين يتنصَّتون خفية على ما يجري بينهُما. لذلك كلِّه، تنظرُ إليه بابتسامةٍ مُتفهِّمة وحزينة، يبدو لها المشهَدُ مُشِعّاً بجَمالٍ تراجيدي (إنّه النعتُ الذي لا تكفُّ عن استعماله)، هو مُضطرٌّ أنْ يُوجِّه لها الضَّربات وأنْ يُحدِّثها عن الحبّ بنظراته في الآن نفسه.

يضحكُ غوجار، فأقول له: إنّ الحقيقة البادية من موقفِ العاشقة، بما يُستشفُّ منه مِن أوْهام، أقلّ أهمية مِمّا يَظنّ، إنْ هي إلا حقيقة بئيسة ومُبتذلة تتضاءلُ أمامَ أخرى أرْقى سوفَ تُقاومُ الزمن، إنّها حقيقة الكِتاب الذي سوفَ تؤلِّفه. مُنذ لقائها الأوّل مع مَن تعشقه، كانت فكرةُ الكتاب تحومُ خفية حول الطاولة الصغيرة التي جمعَتْهُما. لقد شكّلَ الكتابُ ابتداءً من تلك اللحظة الغاية المُضمَرة واللاشعورية لمُغامرَتِها بكاملها. لكن، ما الغاية من الكتاب؟ ألإنجاز نورتريه عن كيسنجر؟ لمْ يكن لديها إطلاقاً ما تقوله عنه! ما كانَ يُحرِّكها هو حقيقتها الخاصَّة عن ذاتها. لم

Twitter: @ketab_n

تكن تتوقُ إلى كيسنجر ولا إلى جَسَدِه «لا يُمْكِنه أنْ يكون إلا عشيقاً سيئاً»، ما كانت تسْعَى إليه هو توسيع أناها، إخراج تلك الأنا من دائرةِ حياتها الضيقة، بجَعْلها تتألّق وتتحوَّلُ إلى ضوء. كان كيسنجر بالنسبة إليها مطيّة أسطورية، حِصاناً مُجنَّحاً امتطته أناها من أجْل تحليقٍ هائلٍ في السماء.

«لقد كانت غبية»، علّق غوجار بجفاء وهو يتهكّم من شروحي الوهْمية.

«أبداً»، قلتُ، إذ «يُشهَدُ لها بالذكاء. الأمرُ يتعلّقُ بشيءٍ آخر غير الغباوة. لقد كانت واثقة من أنّها مُصطفاة».

15

الاصطفاء مفهومٌ لاهوتي يعني قراراً فوق طبيعي صادراً عن إرادةٍ حُرّة، إنْ لم يكن عن نزوة، بموجبها يصطفي الإله أحَداً، من غير أيّ استحقاق، لمهمّة استثنائية وخارقة. إنّه اليقينُ الذي سوّغ للقدّيسين إنهاكَ قُواهم في تحمُّل أقسى الآلام الجسدية. للمفاهيم اللاهوتية تجلٍّ ساخرٌ في التفاهَة الواسمةِ لحياتنا. كلٌّ منّا يُعاني (كثيراً أو قليلاً) من دناءَةِ حياته اليومية، يتوقُ إلى التخلّص منها والارتقاء بها. لابدّ أنّ كلَّ واحدٍ منّا ساورَتْه أوهامٌ (كبيرة كانت أو صغيرة) أشعَرَتْه أنّه خليقٌ بهذا الارتقاء، وأنّه مرصودٌ له ومُصطفى لتحقيقه.

الإحساسُ بالاصطفاء حاضرٌ، مثلاً، في كلِّ علاقة حبّ،

Twitter: @ketab_n

لأنّ الحبّ، في تعريفه، يعني هدية غير مُستحقّة، بل هذه الهدية هي أساساً الدليل على حبٍّ حقيقي. إنْ امرأةٌ قالت لي: أحبّك لذكائك ونزاهتك وإخلاصك، لأنّك تخصُّني بالهدايا، وتغسلُ الأواني، أصابُ بالخيبة، لأنّ هذا الحبّ تحكمه المصلحة. بالمقابل، ما أبْهى أنْ يُقال لك: أنا مجنونة بك وإنْ لم تكن ذكياً ولا نزيهاً، مجنونة بك وإن كنتَ كذاباً وأنانياً ودنيئاً.

لربّما يشهد الإنسان أولى حالات وهْم الاصطفاء في فترةِ الرضاعة، بفضل العناية التي تخصُّه الأمّ بها من غير استحقاق، ويُطالِبُ بإلحاحٍ بمضاعفتها. في حين يتعيّنُ على التربية أنْ تُحرّره من هذا الوهم، وتجعله يستوعبُ أنّ لكلِّ شيءٍ في الحياة ثمناً. غير أنّ ذلك لا يتمّ في الغالب العامّ إلا بعد فوات الأوان. لابدّ أنكم انتبهتم لتلك الصبية، ذات العشر سنوات، وهي تحاولُ فرْضَ إرادتها على رفيقاتها عندما لمْ تجد ما به تحتجّ، تقول بصوتٍ عالٍ وزهوٍ غير مُبرَّر: «لأنّني أقول ذلك»، أو «لأنّني أريد ذلك». هي تشعر أنّها مصطفاة. لكنها، يوماً مّا، ستقول: «لأنني أريد ذلك»، وسوف ينفجر الكلُّ من حولها ضحكاً. ما الذي بإمكان مَن يدّعي أنّه مُصطفى القيام به لإثبات اصطفائه وإيهام ذاته وإيهام الآخرين أنّه لا ينتمي لابتذال الحياة العامّة؟

من أجل ذلك يُسعفه العصر القائم على اختراع التصوير الفوتوغرافي بنجومه وراقصيه ومشاهيره، حيث صورهم المعروضة على الشاشة الكبيرة يُشاهدها الجميع وتثيرُهُم وتتمنّع عليهم. من يعتبر نفسه مصطفى يتقرّبُ بشغفٍ من المشاهير،

Twitter: @ketab_n

مُظهراً، في الحياة العامّة، انتماءَهُ بهذا التقرّب إلى الخارق وابتعادَهُ عن المعتاد، أي عن حياة الجار والشريك والرفيق الذين يضطرّ (تضطرّ) إلى العيش بينهم.

هكذا تحوّلَ المشاهيرُ إلى مؤسّسةٍ عموميةٍ مِثل التأمين الصّحي، والضمان الاجتماعي، ومختلف التأمينات، ومِثل مَشَافي المجانين. غير أنّ جدوى هؤلاء المشاهير تتوقّفُ على شرط تمنُّع الاقتراب منهم. عندما يريد أحدٌ أن يُثبت اصطفاءَهُ انطلاقاً من علاقةٍ شخصية مباشرة مع واحدٍ من المشاهير، يكونُ مهدَّداً، كما وقع للمتيَّمة بكيسنجر، بالطرد. يُسمّى هذا الطرد، في لغة اللاهوت، السقوط. لذلك تتحدّثُ المتيَّمة بكيسنجر عن حقّ في كتابها صراحة عن حُبّها التراجيدي، لأنّ سقوطاً، وهو ما لا يُزعج غوجار بل يُثير سخريته، تراجيدي أصلاً.

قبل أن تُدركَ إيمّاكولاطا أنّها تعشقُ بيرك، عاشت الحياةَ العادية لمُعظم النساء، بضع زيجات وطلاق، وبضع عُشاق جَلبوا لها خيبة ثابتة وهادئة، بل تقريباً وديعة. آخِرُهم يُكنّ لها حبّاً خاصّاً، وهي تتحمّله أكثر من الآخرين، لا فقط لخنوعه، وإنّما أيضاً لجَدْواه، يشتغلُ مُصوراً، وقد ساعدها كثيراً لمّا باشرت عملها لأوّل مرّة بالتلفزيون. يكبرها قليلاً، غير أنّه يبدو مثل طالب أبديّ مولعٍ بها، يجدها أجملَ النساء وأذكاهن و(أساساً) أرقهن إحساساً من بين الجميع.

كانت رقة إحساس مُتيِّمَتِه تبدو له مِثل مَنظر طبيعيّ بريشةِ رسّامٍ رومانسي ألماني، تنتثِرُ فيه أشجارٌ بأشكال مُلتوية على نحو

Twitter: @ketab_n

عجيب، تحت سماءٍ زرقاء نائية، ببيتِ الإله. كلّما اندسّ إلى هذا المشهد تنتابه رغبة لا تُقاوَم في أنْ يجثو كما لو أنّه أمام مُعجزةٍ إلهية.

16

يأخذ البهْو تدريجياً في الامتلاء بعلماء الحشرات، من فرنسا ومن بعض البلدان الأخرى، من بينهم عالِمٌ تشيكي في الستين من عمره، يُقال إنّه شخصية هامّة في النظام الجديد، لربّما يشغلُ منصبَ وزير أو رئيس أكاديمية العلوم، أو هو على الأقلّ باحثٌ ينتمي إلى هذه الأكاديمية. على كلٍّ حال هو، من وجهة الفضول العادي، الشخصية الأكثر أهمية في هذا الجَمْع (يُمثل مرحلة تاريخية جديدة بَعْد أفول الاشتراكية). مع ذلك يقفُ وحيداً، بقامةٍ ضخمةٍ غير متناسقة، وسط الحشد الذي يخوضُ في الحديث. قبل وهلة قصيرة فقط، كان الناس يتسابقون لتحيته وطرح بعض الأسئلة عليه، غير أنّ النقاش كان يتوقفُ دوماً أسرع ممّا كانوا يتوقعون، إذ بعد تبادُل العبارات الأولى، لا يعرفون عمّا يُحدّثونه، لا موضوعَ مشتركاً يجمع بينهم وبينه في آخر المطاف. عاد الفرنسيون بسرعة للحديث عن مشاكلهم، وقد حاولَ مُسايرَتَهم مُضيفاً بين الفينة والأخرى: «عندنا، الأمْرُ مُخالفٌ تماماً»، ولمّا أدرك ألا أحَدَ كان يهتمّ بما يحدث «عندنا...»، تنحّى مُبتعداً وقد علا مُحيّاه حزنٌ لا هو مؤلم ولا

Twitter: @ketab_n

هو تعيس، حزنٌ شفّاف، ينطوي على تسامُحٍ لا يخلو من غطرسة.

بينما يملأ الآخَرون البهو المُزوَّد بمقهى، يدخلُ العالم التشيكي قاعة المؤتمر الفارغة التي جُهّزت بأربع طاولات على شكل مُربّع واسع، في انتظار انطلاق أعمال المؤتمر. على مقربة من الباب، طاولة صغيرة، عليها قائمة بأسماء المدعوين، إلى جوارها آنسة تبدو هي الأخرى منسية مثله. ينحني نحوها ويُعلنُ لها اسمَه، فتضطرُّهُ لأن يُعيدَه مرّتين. لمْ تجرؤ على مُطالبته بالتكرار في المرّة الثالثة، وهي تبحث، كما اتّفق، في القائمة عن اسمٍ يُشبه الصوت الذي تردَّدَ على سمْعها.

بلطفٍ أبوي لافت، ينحني العالِم التشيكي على القائمة، مشيراً إلى اسمه بعد أن عثرَ عليه: تشيكوريبسكي (CECHORIPSKY)

«آه، السيد سيكوريبي؟ تقول

- ينبغي أنْ يُنطقَ تشي - كو - ريبس - كي.

- آه، ليس سهلاً إطلاقاً!

- أكثر من ذلك، لمْ يُكتَب الاسمُ بشكلٍ سليم»، يقول العالم التشيكي. ثمّ يتناول القلم من فوق الطاولة، ويرسم فوق حرفيْ C و R علامتيْن صغيرتيْن تُشبهان في الفرنسية علامة مدٍّ مقلوب (v).

تنظرُ السكرتيرة إلى العلامتيْن، ترفعُ بَصَرَها إليه، ثمّ تقول مُتأوّهة: «إنّ الأمر مُعقّدٌ جدّاً!

Twitter: @ketab_n

- على العكس، إنّه بسيطٌ للغاية.

- بسيط؟

- أتعرفين جون هوس؟»

تُحوِّلُ السكرتيرةُ سريعاً نظرَها إلى قائمة المدعوين، فيشرعُ توّاً في التوضيح: «لقد كان، كما تعلمين، مُصلحاً كبيراً للكنيسة، مُمهّداً لظهور مارتان لوثر، وأستاذاً بجامعة تشارلز، أوّل جامعة أقيمت في الإمبراطورية الرومانية المُقدّسة، كما تعلمين. غير أنّ ما لا تعلمينه هو أنّ جون هوس كان، في الآن ذاته، مُجدّداً كبيراً في ضبط الخطّ. لقد نجح في تبسيطه ببراعة. لكتابة ما تنطقينه tch كان عليكِ اعتماد ثلاثة حروف هي t وc وh. الألمان أنفسهم يحتاجون إلى أربعة حروف هي t وc وs وh. لكن، بفضل جون هوس، لا نحتاج نحن إلا لحرفٍ واحد هو c مع علامةٍ صغيرة فوقه».

ينحني العالم التشيكي مرّةً أخرى على طاولة السكرتيرة، وعلى هامش القائمة، يكتبُ c بحجم كبير، ويُثبتُ فوقه علامة مدٍّ مقلوبة على النحو الآتي Č، ثم ينظر مباشرة في عينيها ويَنطقُ بصوتٍ جليّ «تشه tch».

بدورها تنظر السكرتيرة مباشرة في عينيه، وتُعيدُ معه: «tch».

- نعم. ممتاز!

- هذا حقّاً جدّ غمَلي. من المؤسف أنّ تجديدَ لوثر ليس معروفاً عندنا.

Twitter: @ketab_n

- تجديد جون هوس...»، يقول العالم التشيكي، مُتجاهلاً زلّة الآنسة، «...لمْ يبقَ مجهولاً تماماً، إذ ثمّة بلدٌ استُعمِلَ فيه... تعرفينه بلا شكّ؟

- لا.

- استُعمل في ليتوانيا!

- ليتوانيا» تكرّرُ السكرتيرة مُنقّبة، عبثاً، في ذاكرتها عن مكان من العالم تضعُ فيه هذا البلد.

- «وفي لاتِفيا أيضاً. تفهمين الآن لِمَ نحن التشيكيين فخورون بهذه العلامات الصغيرة فوق الحروف. (ثم مبتسماً) نحن مستعدّون أن نتخلّى عن كلّ شيء، لكن من أجل هذه العلامات سوف نُقاومُ إلى آخِر رمق».

ينحني باحترامٍ للآنسة الفرنسية، يتوجّه صوب طاولة أعمال المُؤتمَر، حيث تمَّ تثبيت بطاقةٍ تحملُ اسمَ المشارك أمام كلّ مقعد. يعثرُ على اسمه، يتأمّله طويلاً، ثمّ يحملُ البطاقة التي كتِب عليها، وقد ارتسمت على مُحيّاه ابتسامة حزينة إلا أنها تنضحُ بالتسامح، يأتي كي يُري البطاقة للسكرتيرة.

في تلك الأثناء، يتوقف عالمُ حشراتٍ آخَر بمدخل القاعة أمام الطاولة الصغيرة كي تضع السكرتيرة إشارةً بجانب اسمه. وعندما تَرَى العالِمَ التشيكي يقتربُ، تطلبُ منه التريث قائلة «لحظة من فضلك السيد شيبيكي (Chipiqui)!»

يردُّ عليها بإشارةٍ مُهذبة كي يُطمئنها أنّه ليس على عجَل. ينتظرُ، قرب الطاولة بصبر مصحوبٍ بتواضعٍ لافت (يتوقف

Twitter: @ketab_n

عالِمان آخران قرب الطاولة الصغيرة). عندما تفرغ السكرتيرة، يُظهِرُ لها البطاقة:

«انظري، إنّه أمرٌ مُضحك، أليس كذلك؟»

تنظر من غير أن تستوعبَ ما يعنيه جيداً، «لكن السيد شينيبيكي (Chenipiqui)، علامات المدّ مثبتة في البطاقة!

- صحيح، لكنها علامات المدّ العادية! لقد نسوا قلْبَها! انظري أيضاً أين وُضعت! فوق E وفوق O! Cêchôripsky!

- آه نعم، أنتَ على حقّ، تقول السكرتيرة بغيظ.

- أتساءلُ، يقول العالم التشيكي وقد تضاعفَ حزنُه، لِمَ تُنسى تلك العلامات دوماً. ألا ترين معي أنّ علامات المدّ المقلوبة هذه عالية الشاعرية؟ إنّها مثل طيور مُحلِّقة! مثل يماماتٍ بأجنحة مبسوطة! أو إن شئت (يواصلُ بصوتٍ دافئ) مثل فراشات».

ثمّ ينحني على الطاولة من جديد، يتناولُ القلمَ كي يُصحّح كتابة اسمه على البطاقة. يُنجز ذلك بتواضعٍ كبير كما لو كان يُقدّمُ اعتذاراً، بعدها ينصرفُ من غير أن ينبس بكلمة.

تُتابعه السكرتيرة بنظرتِها وهو ينصرفُ بقامته الضخمة، عديمة الاتساق على نحو غريب، يعتريها حينذاك فيضُ حنانٍ أمومي. وتتخيّلُ لا فراشة بل علامة مدٍّ مقلوبة ترفرفُ حول العالم التشيكي، قبل أن تحطّ فوق شعره الأبيض الغزير.

وهو يخطو نحو مقعده، يلتفتُ فيرَى ابتسامة التأثر على

Twitter: @ketab_n

وجْهِ السكرتيرة، يردُّ بابتسامته الخاصّة التي يردفها بثلاث أخريات قبل أن يبلغ مقعده. ابتساماتٌ حزينة، ومع ذلك يَسري فيها الإحساسُ بالفخر. فخرٌ حزين، به يُمْكنُ تحديد العالِم التشيكي.

17

أنْ يعتريه الحُزن، بعد أنْ رَأى علامات المدّ فوق الحروف في غير مواضعها الصحيحة، مُستساغ من قِبَل الجميع، لكن ما مصدر فخره؟

ها هو المعطى الأساس لسيرته: بعد عام من الاجتياح الروسي سنة 1968، تمّ طردُهُ من معهد علم الحشرات، واضطرّ للاشتغال عاملاً في قطاع بناء الشقق حتى نهاية الاحتلال سنة 1989، أي قرابة عشرين سنة.

لكن، أليس ثمّة باستمرار المئات، بل الآلاف ممّن يفقدون وظائفهم في أمريكا وفرنسا وإسبانيا وفي كلّ مكان؟ كلّهم يُعانون، لكنْ من غير أن تكون مُعاناتهم مبعثَ فخر. ما مُسوّغ فخر العالم التشيكي إذاً؟

يعود الأمر إلى أنّه لمْ يُطرد من عمَله لأسباب اقتصادية، وإنّما سياسية.

وليكن. يبقى، مع ذلك، أنْ نتبيّن في هذه الحالة، لِمَ تظلُّ المعاناة الناجمة عن عواملَ اقتصادية أقلّ أهمية وأقلّ اعتباراً. أيتعيّنُ أنْ يُثير فَصْلُ موظف، لمْ يَرُق لِمُشغّله، الخِزي، فيما

Twitter: @ketab_n

يكون لِمَن فقدَ عمله بسبب آرائه السياسية حقّ الزهو؟ ما مُسوّغ ذلك؟

لأنّ المفصولَ لدواعٍ اقتصادية يُؤدّي دوراً سلبياً، موقفُهُ لا ينطوي على شجاعةٍ تستحقّ التقدير.

يبدو الأمر بدهياً، لكنّه، في الحقيقة، ليس كذلك، لأنّ العالم التشيكي الذي تمّ فصْلُه من منصبه بعد عام 1968، لمّا أقام الجيشُ الروسي في البلاد نظاماً مقيتاً، لمْ يكن صدَرَ عنه موقفٌ شجاع. لمْ يكن يهتمّ، حين كان مديراً لإحدى شُعَب المعهد الذي يشتغِلُ به، إلا بالذباب. وذات يوم، تجمّع فجأة بمكتبه نحو عشرة من أشهر مُعارضي النظام، وطالبوه بوضع قاعةٍ تحت تصرّفهم حتى يتسنّى لهم عقد اجتماعات شبه سرّية. لقد تصرّفوا معه بناءً على قاعدةِ الجيدو الأخلاقي القائمة على الهجوم المُباغت وتشكيل جمهور صغير من المُراقبين. وضعَتْه تلك المواجَهة المُباغِتة في ارتباكٍ تامّ. قوْلُ «نَعم»، سوف يجُرُّ عليه مباشرةً تبعاتٍ وخيمة، قد يؤدّي إلى أنْ يَفقِدَ وظيفتَهُ ويُحْرَمَ أبناؤهُ الثلاثة من مُتابعة تعليمهم الجامعي. في المقابل، لمْ يكن يملك الشجاعة الكافية كي يقول «لا» للجمهور الصغير الذي بدأ يسخر من جُبنه مُقدَّماً. فانتهى إلى الإذعان لمطلبهم، مُحتقِراً، في قرارةِ نفسه، ذاتَه، وخجَله، وضعفه، وانقيادَهُ الموجبَ للندم. جُبنُه، إنْ رُمنا الدّقة، هو إذاً ما تسبّبَ في فصله من العمل وحرمان أبنائه من الدراسة.

إذا كان الأمرُ كذلك، فلِمَ يشعرُ هذا الشيطان بالفخر؟

Twitter: @ketab_n

كلّما مرَّ الزمن، كان العالمُ التشيكي ينسَى كرْهَهُ الأصلي للمُعارضين حتّى اعتاد أنْ يَرى في «نعم» التي نطق بها آنذاك، موقفاً إرادياً حرّاً، وتعبيراً عن ثوريته ضدّ النظام المقيت. هكذا ترسَّخ لديه الاعتقاد أنّه ينتمي إلى أولئك الذين صعدوا إلى مسرح التاريخ الكبير، وهذا الاعتقاد هو مصدَرُ فخره.

لكن، أليس صحيحاً أنّ عدداً لا يُحْصَى يتورّطُ دوماً في صراعاتٍ سياسية عديدة، وتبعاً لذلك يُمكنُ أنْ ينتابهُم شعورُ الفخر بصعود مسرح التاريخ الكبير؟

يتعيّنُ أنْ أحدِّد بدقّة أطروحتي: إنّ فخرَ العالم التشيكي لا يرجعُ إلى صعوده مسرح التاريخ في أيّ وقت، بل في تلك اللحظة التي عمّت الإضاءةُ أرجاء المسرح. يُسمَّى مسرحُ التاريخ المُضاء الحدثَ التاريخي الكوني. فقد جسّدت براغ عام 1968، وهي تحت الأضواء الكاشفة وعدسات الكاميرا، حدثاً تاريخياً كونياً بامتياز، والعالم التشيكي فخورٌ، لأنّه ما زال يشعر إلى الآن بقُبْلتها على جبهته.

لِمَ لا توقظ مفاوضاتٌ كبرى تجارية وقِممُ لقاءِ الدول العظمى، وإنْ جسّدت أحداثاً هامّة وحظيت بالإضاءة والتصوير والتعليق، إحساسَ الفخر ذاته لدى المُشاركين فيها؟

سوف أدلي بتدقيقٍ أخير: ما كان له أثرٌ على العالِم التشيكي ليس أيّ حدثٍ تاريخي كوني، بل الحدث الجليل. والحدثُ يكونُ جليلاً عندما يتألّمُ مَن هو في مقدّمة المسرح، وفي أقصاه يتردَّد صدى إطلاق النار، وفي أعلاه يحومُ ملاكُ الموت.

Twitter: @ketab_n

ها هي ذي الصيغة النهائية: إنّ العالِم التشيكي فخورٌ بالأثر الذي طاله من حدثٍ تاريخي كوني جليل. هو يعلمُ جيداً أنّ هذا الأثرَ يُميّزه عن كلّ النرويجيين والدانماركيين، وعن كلّ الفرنسيين والإنجليز الحاضرين معه في القاعة.

18

على طاولة التسيير، ثمّة مكانٌ يتردّدُ عليه المشاركون بالتناوب لإلقاء مُداخلاتهم. لا يُنصتُ العالم التشيكي لما يقولونه، بل ينتظرُ دورَهُ، متحسِّساً، بين الفينة والأخرى، الوريْقات الخمس في جيبه، وريْقاتُ مداخلته الوجيزة التي هي، كما يعلم، عادية. فقد اكتفى فيها، هو الذي أبعِدَ عن البحث العلمي مدّةَ عشرين سنة، بتلخيص ما سبق له أنْ نشرهُ لمّا كانَ باحثاً في شبابه، حين اكتشفَ نوعاً من الذباب كان سمّاه موسكا براجنسيس، مع تقديم وصفٍ له. وبعد أنْ سمع رئيس الجلسة يتلفّظ بمقاطعَ تدلّ، من دون شكّ، على اسمه، يقوم ويتوجّه نحو مكان إلقاء المداخلات.

خلال العشرين ثانية التي تطلَّبَها انتقاله إلى مكان إلقاء المداخلات، يحدث له ما لمْ يكن مُتوقّعاً؛ إذ يستسلمُ للانفعال، فها هو بعد كلّ هذه السنوات يجدُ نفسَه من جديد بين مَن يُقدِّرُهم ويُقدّرونه، بين العلماء القريبين من نفسه، في الوسط الذي منه انتزَعَه القدر. عندما يتوقف أمام المقعد المُحدَّد له،

Twitter: @ketab_n

يظلُّ واقفاً، يريد ولو لمرّةٍ واحدة أنْ يستسْلمَ لأحاسيسه، ويُفصحَ بتلقائية عمّا يشعر به لزملائه المجهولين.

«اسمحوا لي عزيزاتي أعزائي أنْ أفصح لكم عن شعوري الذي الآن باغتني. بَعْدَ غيابٍ دام عشرين عاماً تقريباً، يُتاحُ لي أنْ أتوجّه من جديد إلى محفل مَن يُفكّرون في القضايا ذاتها التي أفكّرُ فيها، ويُحرّكُهم الشغفُ الذي يُحرّكني. إنّي قادمٌ من بلدٍ يُمكنُ للإنسان فيه، فقط لأنّه عبَّرَ عن أفكاره بصوتٍ عالٍ، أنْ يُحرَمَ من معنى حياته نفسِها، مادام معنى الحياة بالنسبة إلى العالِم ليس شيئاً آخَرَ غير علمِه. وكما لا يخفى عليكم، عشراتُ الآلاف من الناس، وكلُّ المثقفين في بلدي، طُردوا من وظائفهم بعد الصيف التراجيدي لعام 1968. قبل ستة أشهر فقط، كنتُ لاأزالُ أشتغلُ عاملاً في قطاع بناء الشقق. لا شيءَ، ما في ذلك شكّ، مُخزٍ في هذا العمل الذي يُعلّمنا أشياءَ كثيرة، ويجعلنا نظفر بصداقةِ ناسٍ عاديين ورائعين، ونتأكّد أيضاً أنّنا، نحن العلماء، محظوظون، لأنّ إنجازَ عمَلٍ هو، متى كان في الآن ذاته شغفاً، امتيازٌ. نعم، أيّها الأصدقاء، الامتياز الذي لـمْ يعرفه رفاقي عُمّال البناء، لأنّ مِنَ المستحيل حَمْلُ أخشاب البناء بشغف. هذا الامتياز الذي انتُزِعَ منّي مدّةَ عشرين سنة، أستعيدُهُ من جديد، وأشعرُ كما لو أنّي في حالةِ سُكر. وهو ما يُوضّحُ لكم، أصدقائي الأعزّاء، لِمَ أعيشُ هذه اللحظات مثل حفلٍ حقيقي، حتّى وإنْ ظلَّ هذا الحفلُ بالنسبة إليّ حزيناً نوعاً ما».

بمجرّد أنْ يتلفّظ الكلمات الأخيرة، تبتلُّ عيناه بالدّمع. وهو

Twitter: @ketab_n

ما يُضايقه قليلاً، يجعله يستعيدُ صورةَ أبيه العجوز الذي كان ينفعِلُ باستمرار ويستسلمُ للبكاء في كلِّ مناسبة، غيْر أنّه يقولُ في سرِّه، لِمَ لا يُسايرُ إحساسَهُ ولو لمرّةٍ في الحياة، فعلى هؤلاء أنْ يشعُروا بالتكريم الذي يُتيحه لهم انفعالُهُ الذي يُقدّمُهُ لهم مثل هدية صغيرة من براغ.

لمْ يكن مُخطئاً في تقديره. فقد تجاوَبَ معه الحضور بتأثرٍ شديد. ما إنْ تلفّظ بالكلمة الأخيرة حتّى انتصبَ بيرك واقفاً يُصفّق. تُسرعُ الكاميرا التي كانت حاضرة في رصْد وجْهه ويديْه في وضعية التصفيق، وتُصوّرُ أيضاً العالم التشيكي. كلُّ الحاضرين يقومون من أماكنهم، بتثاقلٍ أو بحماس، وجوهُهم مبتسمة أو عابسة، ينخرطون في التصفيق الذي استهواهم حتى لمْ يعودوا يعرفون متى يُوقفونه، العالِم التشيكي ماثِلٌ أمامهم، بقامته الضخمة على نحو ناشز، وكلّما كان النشازُ ينبعث من قامته كان مؤثّراً ومنفعِلاً، حتى إنّ دموعَه لا تبقَى حبيسة جفنيْه باحتشام، بل تنسابُ، بتباهٍ، حول أنفه، إلى فمِه وذقنه، على مرأى كلِّ زملائه الذين يُواصلون التصفيق بحرارةٍ أكثر ما أمْكن.

أخيراً يهدأ الحماس ويجلسُ الجميع، فيقولُ العالِم التشيكي بصوتٍ مُرتعش: «أشكركم، أصدقائي، أشكركم من أعماق قلبي». يعود، بعد انحناءةِ تقديرٍ، إلى مكانه، وهو يعي أنّه يشهَدُ الآن أعظمَ لحظةٍ في حياته، لحظة المجد، نعَم المجد، ما المانع من أنْ يَجْهرَ بهذه الكلمة. يشعرُ بنفسه سامياً وجميلاً، ذائعَ الصيت، فيتمنّى لو تطول لحظة سيرهِ نحو مقعدِهِ، ألا تنتهي أبداً.

Twitter: @ketab_n

19

لمّا كان في طريقه إلى مقعده، عمَّ الصمتُ أرجاءَ القاعة، لربّما من الدقّة القول إنّه كان صمتاً مُتعدِّداً، غير أنّ العالِم التشيكي لمْ يُميّز منه إلا واحداً؛ أي صمتَ التأثر. لمْ يُدرك أنّ صمتَ التأثر تحوّلَ تدريجياً إلى صمتٍ دالٍّ على التضايق، مثل تغيير خفيّ ينقلُ سوناتة من نبْرةٍ إلى أخرى. فقد فهمَ الجميعُ أنّ هذا الرجلَ ذا الاسم المُتمنّع على النطق، كان مُنفعلاً من تلقاء نفسه، إلى الحدّ الذي أنساهُ أنْ يقرأ مُداخلتَه التي كان منتظراً أن تُطْلِعَ الحضور على كشوفاته بشأن ذبابٍ جديد. أدركَ الجميعُ الحَرجَ الذي يُمكنُ أن ينجم عن تذكيره بالأمْر. لذلك، يتنحنحُ رئيسُ الجلسة، بعد تردّدٍ طويل، ثمّ يقول: «أشكرُ السيد تشيكوشيبي. . .(ويصمت لوهلة تاركاً للمُشارك الفرصة الأخيرة لتذكّر ما فاته). . . وأعطي الكلمة للمُتدخّل الذي بعْدَه». حينها فقط تكسَّرَ الصمتُ جزئياً بضحكٍ مكتومٍ قادمٍ من أقصى القاعة.

لمْ ينتبه العالِم التشيكي، وهو غارقٌ في أفكاره، لا للضحك، ولا لِما جاءَ في مُداخلة زميله، ولا للمتدخّلين الذي تعاقبوا بَعْده، إلى أنْ أيقظتْه مِن تأمّله مُداخلة عالِم بلجيكي مُهتمّ، مثله، بالذباب. يا إلهي، لقد نسِيَ أن يُلقي مُداخلته! يدُسُّ يدَهُ في جيبه، الوريْقاتُ الخمس لا تزال في مكانها، وهو الدليل على أنّه لا يحلم.

تحمَرُّ وجنتاه. يشعرُ بنفسه في موقفٍ مُضحك. أما زال

Twitter: @ketab_n

مُمكناً أنْ يتداركَ الوضع؟ لا، هو واثقٌ أنْ لا شيءَ يُمكنُ تدارُكُه على الإطلاق.

بعد لحظاتٍ من الإحساس بالخِزي، تعِنّ له فكرةٌ غريبة تُخفّفُ من وطأةِ إحساسه. صحيحٌ أنّ موقفه يبعثُ على الهُزء، لكن ليس فيه ما هو سلبي أو مُشين، ولا ينطوي على أيّ فظاظة، الموقف الذي عاشه يُكثّفُ من جديد الحُزنَ الملازمَ لحياته، يجعلُ مصيرَه أكثر تعاسة، وأكثر، تبعاً لذلك، سمواً وجمالاً أيضاً.

لا، لنْ يُفارقَ الفخرُ أبداً حُزنَ العالِم التشيكي.

20

لِكلِّ المؤتمرات مُتسلِّلون يجتمعون في قاعةٍ مُجاورة لتناوُل الخمرة. فانسون الذي ملَّ الإنصاتَ لعلماء الحشرات ولمْ يرُقه كثيراً إنجازُ العالِم التشيكي الغريب، يتسلَّلُ إلى البهْو رفقة مُتسلِّلين آخرين، يتحلّقُ الجميعُ حول مائدةٍ طويلة قربَ الحانة.

بعد فترةٍ طويلةٍ من الصمت، ينجحُ في فتْح الحديث مع مجموعةٍ يجهلُ أعضاءَها، بقوله: «لي عشيقة تريدُني أنْ أكونَ فظّاً».

عندما يصدُرُ القولُ ذاتُه عن بونتوفان، يقطعه بصمتٍ يتأهّبُ خلاله كلُّ المستمعين للإنصات. فانسون أيضاً يُحاولُ القيامَ بالشيء ذاته، فيصِلُ إلى سمْعه ضحكٌ عالٍ، وهو ما يُشجِّعُه، إذ

Twitter: @ketab_n

تتّسِع عيناه وتصدرُ عنه إشارةٌ من يده لتهدئة مُستمعيه، لكنّه ينتبه، في تلك اللحظة، إلى أنّ الجميع ينظرُ إلى الجهة الأخرى من الطاولة، مُتسلِّين بمُتابعة شخصيْن يتراشقان بأسماء العصافير.

بعد دقيقةٍ أو اثنتيْن، ينجحُ من جديد في انتزاع الانتباه بقوله: «كنتُ أقول لكم إنّ عشيقتي تُطالبني بسلوكٍ فظّ». الجميع، هذه المرّة، يُنصتُ له، فيتحاشى ارتكابَ خطإِ التوقّف عن الكلام، مُواصلاً الحديث بسُرعة أكبر، كما لو كان يُريد أن ينجو من شخصٍ يُلاحقه كي يُقاطعه، «غير أنّي عاجزٌ عن الاستجابة لها، فأنا لطيفٌ للغاية، أليس كذلك». في الردّ على هذه الكلمات، يأخذ هو نفسُه في الضحك. عندما يُلاحظ أنّ ضحكه يبقى بلا صَدى، يُعجّلُ في مواصلة الحديث، يُسرعُ في الكلام: تزورني باستمرار راقنة شابّة، أمْلي عليها...

- هل تكتبُ على الحاسوب؟ يسأله رجلٌ يُبدي الاهتمامَ فجأة.

- نعم، يُجيب فانسون

- ما نوعه؟

يذكُرُ فانسون نوعاً. غير أنّ بحوزة الرجل نوعاً آخر، فيأخذ في سرْد حكاياتٍ وقعتْ له بسبب حاسوبه الذي اعتادَ أنْ يخلقَ له أسوأ المتاعب. ينخرطُ الجميعُ في الهزل، وتعلو القهقهاتُ مرّاتٍ عديدة.

إثر ذلك، يتذكّرُ فانسون بحُزن ما كان يعتقده سابقاً. لقد

Twitter: @ketab_n

كان دوماً يظنّ أنّ حظوظ الإنسان تتحدَّدُ بمظهره، بجمال وجْهه أو قبحه، بقامته، بشعَره أو غيابه. إنّ الأمْرَ خِلافُ ذلك. الصوتُ هو ما يُحدِّدُ كلَّ شيء. صوتُ فانسون ضعيفٌ، وحادّ للغاية. عندما يشرعُ في الحديث، لا أحَدَ ينتبه إليه، ممّا يُلزمُه برفع صوته، حينها يعتقدُ الجميعُ أنّه يصرخ. أمّا بونتوفان، فيتحدّثُ بصوتٍ خافت، ويتردَّد صوتُه الخافتُ رائعاً ساحراً قوياً، حتّى إنّ الجميع لا يسمعُ غيرَهُ.

آهٍ، المَهيب بونتوفان. لقد وَعَدَهُ بالمجيء معه إلى المُؤتمَر رفقة العصابة بكاملها، قبْل أنْ يَعدل عن رأيه مُبدياً لا مبالاته، وفاءً لطبيعته الميّالة إلى الأقوال أكثر من الأفعال. هكذا شعَر فانسون بالخيبة من جهة، وأحسّ بنفسه، من جهة أخرى، مُلزَماً ألا يخونَ تنبيه مُعلِّمه الذي قال له قبيْل توجّهه إلى المؤتمر: «ينبغي أن تُمثّلنا جميعاً، أخوِّلُ لك كلَّ الصلاحيات للتصرّف باسمنا، لفائدة قضيتنا المشترَكة». تنبيهٌ مُضحكٌ طبعاً، لكن عصابة مقهى غاسكون مُقتنعة أنّ وحدَها التنبيهاتُ المُضحكة في العالَم التافه الذي هو عالَمُنا، تستحقّ الامتثال. يستعيدُ الفمَ الضخم لماشو، إلى جوار رأس بونتوفان المَهيب، بابتسامته المُؤيِّدة، فيُقرِّرُ، مُدعَّماً بتنبيه بونتوفان وابتسامة ماشو، أنْ يقومَ بشيءٍ مّا. يُلقي نظرةً من حوله، فيلمحُ، ضمن المجموعة المُتحلِّقة حول الحانة، فتاةً ينشرحُ لها.

Twitter: @ketab_n

21

لِعلماء الحشرات فظاظة غريبة، يتجاهلون الفتاة رغم أنّها تُصغي إليهم باهتمام قلَّ نظيره، مُستعدّة للضحك عندما يقتضيه المقام، وللتجهّم لمَّا يُظهرون ذلك. من الواضح أنّها لا تعرفُ أحداً من الحاضرين، ردودُ فعلها العجْلى التي لا ينتبه إليها أحد، تُخفي روحاً منزعجة. ينهضُ فانسون من مكانه، يقتربُ من الجماعة التي فيها الفتاة، ويتوجّه إليها بالحديث. بعْد لحظاتٍ قصيرة، ينفصلان عمّا يجري حولهما، يغرقان في حديث يظهَرُ، منذ بدايته، سهلاً ولا نهاية له. اسمُها جولي، تعملُ راقنة، وقد أنجَزَتْ عملاً صغيراً لفائدة رئيس مؤتمر علماء الحشرات. لمْ يكن لها ما تعمله بعد الظهر، فانتهزت الفرصة لقضاء فترة السهرة بذلك القصر الشهير بين أناسٍ يُخيفونها، لكنّهم يُثيرون، في الآن ذاته، فضولها. إلى حدود أمس، لمْ يسبق لها أبداً أنْ قابلتْ عالِم حشرات. يشعُرُ فانسون، وهو معها، بالارتياح، إذ لمْ يضطر للرفع من صوته، بل على العكس يَخفضه لئلا يسمعهما الآخرون. بعد ذلك، يسحَبُها نحو طاولةٍ صغيرة حيث يُمكنهما أنْ يجلسا وجْهاً لوجْه ويَضع يدَهُ على يدها.

«أتعْلمين، كلُّ شيءٍ يتوقّفُ على قوّة الصوت. هو أهمّ مِن أنْ نحظى بوجهٍ وسيم، يقول فانسون.

- صوتُكَ جميل.

- أتجدينه كذلك؟

Twitter: @ketab_n

- نعم.

- لكنّه ضعيف.

- هو ذا الرّائع فيه. أمّا صوتي فقبيحٌ غليظ، أقرب إلى النعيق، يُشبه صوتَ غرابٍ طاعن في السنّ. ألا ترى ذلك؟

- بلى، يقول فانسون بنوعٍ من الحنان، أحبُّ صوتكِ، إنّه مُثير وجرّيء.

- أتَرَى ذلك؟

- صوتُكِ يُشبهك! يقول فانسون، أنتِ أيضاً جرّيئة ومُثيرة»!

- تردُّ جولي التي يُغريها سماع ما يقوله فانسون، «نعم أعتقد ذلك.

- أوْغادٌ هم هؤلاء الذين تزَيْن» يقول فانسون.

«تماماً، تقول مُعربة عن اتفاقها معه.

- مُتهافتون على الظهور، بورجوازيون، أرأيتِ بيرك؟ يا له من قميء!»

- هي مُتّفقة تماماً مع ما يقول. فقد عامَلها هؤلاء كما لو لمْ يكن لها وجود. لذلك، ما يُمكن أنْ تسمعه ضدّهم يروقها، يُرضي رغبة الانتقام عندها. تدريجياً، تجدُ فانسون لطيفاً. إنّه شابٌّ وسيم، مَرِحٌ وبسيط. ليس من المتهافتين، إطلاقاً، على الظهور.

«لي رغبة، يقول فانسون، أنْ أزرَعَ فوضى عارمة هنا. . .»

كان لهذا القول وقعٌ حسن عليها، كما لو أنّه وَعْدٌ بالتمرّد. تبتسمُ جولي، تحذوها رغبة التصفيق.

Twitter: @ketab_n

«سوف أحْضِرُ لك كأسَ ويسكي!»، يقولُ لها ويتوجّه إلى أقصى الجهة الأخرى من البهو، صوب الحانة.

22

في غضون ذلك، يُعلنُ الرئيس نهاية المؤتمر، يُغادرُ المشاركون القاعة في جوّ من الضوضاء، فيمتلئُ البهو فوراً. يقتربُ بيرك من العالِم التشيكي قائلاً: «لقد تأثّرتُ كثيراً بـ. . .»، يقطع كلامَه عمداً كي يُشعِرَهُ بمدى صعوبة العثور على المصطلح الملائم أكثر لوصْف نوع الخطاب الذي قدَّمَه العالِم التشيكي، قبل أن يُضيف «. . . بـ. . . شهادتك. نحن مجبولون على النسيان بسرعة. أودّ أنْ أؤكّد لك أنّي تأثّرتُ إلى أبعد حدّ بما كان يقعُ في بلدكم. لقد كنتم مفخرةَ أوروبا التي لا تملكُ الكثيرَ مِمّا به تفتخر».

يقومُ العالِمُ التشيكي بحركةِ اعتراضٍ غامضة لإظهار تواضُعه.

«لا، لا تعترض. أحرصُ، يقول بيرك، على ذلك. أنتم، وبوجهٍ خاصّ، مُثقفي بلدكم، أظهَرْتُم، بمقاومتكم الشرسة طغيانَ النظام الشيوعي، الشجاعة التي في الغالب تنقصنا، أظهرتُم ظمأ إلى الحرية، بل أستطيع أن أقول، نُبْل الحرية، حتّى أصبحتم بالنسبة إلينا، من جهةٍ أخرى، النموذج الأمثل»، وكي يمنح كلماته لمسة حميمة ودمغة تواطؤ، يُضيف: «بودابيست

Twitter: @ketab_n

مدينة رائعة، دينامية، إنّها، واسمح لي أنْ أشدِّدَ على ذلك، مدينة أوروبية تماماً».

- تقصدُ براغ؟ يقول العالم التشيكي مُحرَجاً.

- آه من الجغرافيا اللعينة! لقد فهم بيرك أنّ العالِم التشيكي أوْقعَهُ في خطأ دقيق، لذلك يُواصلُ، لمّا تمالكَ أعصابه أمام غِلْظة زميله: «طبعاً أقصد براغ، لكنني أقصد أيضاً كراكوفي، أقصد صوفيا، أقصد سانت بترسبورغ، وكلَّ مُدن الشرق، تلك التي تحرّرت مؤخّراً من معسكرات الاعتقال الجسيمة.

- لا تقلْ معسكرات اعتقال. صحيح أنّنا نفقدُ، في الغالب، وظائفنا، إلا أنّنا لمْ نكن في معسكرات.

- كانت معسكراتُ الاعتقال تغطّي كلَّ بلدان الشرق، ياعزيزي! معسكراتٌ واقعية أو رمزية، لا فرْق.

- ولا تقُل الشرق، يُواصلُ العالم التشيكي اعتراضَه. براغ، كما تعلم، مدينة غربية أكثر من باريس. وجامعة تشارلز، المُقامة في القرن الرابع عشر، كانت أوّل جامعة في الإمبراطورية الرومانية المقدّسة. فيها، كما تعْلم جيّداً، درَّسَ جون هوس، المُبشِّر بظهور لوثر، والمجدِّد الكبير للكنيسة ولضبط الكتابة».

أيّ ذبابة لسَعَت العالم التشيكي؟ إذ لا يتوقّف عن تصحيح أخطاء مُحدّثه الذي يستشيط غيظاً، حتّى وإن نجَحَ في الحفاظ على دِفْء صوته عندما يقول: «زميلي العزيز، لا تخجَلْ من انتمائك إلى الشرق. ففرنسا مُتعاطفة جدّاً مع الشرق. تذكّرْ هجرَتكم في القرن التاسع عشر!

Twitter: @ketab_n

- لمْ تحدث عندنا أيّ هجرة في القرن التاسع عشر.

- وماذا عن ميكييفتش؟ أنا فخورٌ أنْ يكون عثرَ على وطنه الثاني في فرنسا!

يُواصلُ العالِم التشيكي اعتراضه: ولكن ميكييفتش لم يكن... »

في تلك اللحظة، تلتحقُ بهما إيمّاكولاطا، تُعْطي إشاراتٍ حاسمة للمُصور، ثمّ بحركةٍ مِن يدها تُبعدُ العالِمَ التشيكي، تقفُ قريبة من بيرك وتخاطبه: «جاك آلان بيرك...»

ينقلُ المصورُ الكاميرا إلى الكتف الأخرى قائلاً: «لحظة وجيزة!»

تقطعُ إيماكولاطا الحديث، تنظر إلى المصور، ومن جديد تتوجّه إلى بيرك قائلة: «جاك آلان بيرك...»

23

لمّأ رأى بيرك، قبل ساعة، إيمّاكولاطا والمُصور في قاعة المؤتمر، كاد يصرخُ من الغضب. لكن الغيظ الذي سبّبه له العالِم التشيكي فاقَ ما ولّدتْه لديه إيمّاكولاطا. وها هو يُقابلها بابتسامةٍ غامضة مادامت قد خلّصته من هذا المُتحذلق الغريب.

وهو ما شجّعها كي تتحدّثَ بصوتٍ مُبتهج، ظاهرِ الحميمية قائلة: «جاك بيرك، في مؤتمر علماءِ الحشرات، العائلة التي إليها تنتسب لِظروفٍ عَرَفْتها في حياتك، عِشتَ للتوّ لحظاتٍ مُفعمة

Twitter: @ketab_n

بالتأثر. . . » ثمّ تُقرِّبُ الميكروفون من فمه.

يُجيب بيرك مثل تلميذ: «نعَم، لقد استطعنا أنْ نستضيفَ عالِم حشراتٍ تشيكي كبير، الذي بذَلَ أن يتفرّغ لبحوثه، اضطرّ لقضاء كلِّ حياته في السجن. لقد كنّا جميعاً مُتأثّرين لحضوره».

أنْ يكون المرءُ راقصاً ليس وَلَعاً وحسب، بل هو أيضاً طريقٌ لا يُمكنُ أن يَحيدَ عنه. لمّا أهانهُ دو بيرك بعد وجبةِ العشاء مع المُصابين بالإيدز، لمْ يُسافر بيرك إلى الصومال برغبةٍ مُفرطة في الزّهْو، بل لأنّه أحسّ بضرورةِ تجويد خطوةٍ في رقصةٍ لمْ يُتقنها. في الوضع الحالي، يُخامرُهُ الإحساس بتفاهةِ عباراته، يعلمُ أنّ شيئاً ينقصُها؛ ينقصُها قليلٌ من المِلح، تُعْوزُها فكرةٌ مُباغتة، لا مُتوقّعة. لذلك لا يتوقّفُ، بل يسترسلُ في الكلام إلى أنْ لاحَت له فكرةٌ قادمة من بعيد، يصوغها قائلاً: «أنتهزُ هذه المناسبة لأعلنَ لكم مُقترَحي تأسيسَ جمعية علماءِ الحشرات الفرنسيين والتشيكيين (تفاجئه هو نفسه الفكرة، فيشعرُ فوراً بأنّه أحسن حالاً)، لقد تحدثتُ للتوّ مع زميلي من براغ (يقوم بإشارةٍ غامضة صوب العالم التشيكي) الذي عبَّرَ عن ابتهاجه بأنْ تحملَ هذه المُنظّمة اسمَ شاعر كبير مَنفي مِن شعراء القرن الماضي الذي سوف يرمُزُ، إلى الأبد، إلى الصداقة بين شعبيْنا. إنّه ميكييفتش، آدم ميكييفتش. حياةُ هذا الشاعر درسٌ سوف يُذكّرنا أنّ كلَّ ما نُنجزه، سواء في الشعر أو في العلم، يُجسّدُ ثورةً (كلمة ثورة أراحته بصورةٍ نهائية)، لأنّ الإنسان في ثورةٍ دائمة (هو الآن حقّاً رائع، ويعلم ذلك)، أليس كذلك يا صديقي (يلتفت نحو العالم

Twitter: @ketab_n

التشيكي الذي تلتقطه توّاً عدسة الكاميرا وهو يومئ بانحناءةٍ من رأسه، كما لو كان يُريد التعبير عن الموافقة)، لقد أثبتّم ذلك من خلال حياتكم، وتضحيتكم، ومعاناتكم، أنتم تؤكّدون لي أنّ الإنسان الخليقَ بهذا الاسم هو في ثورةٍ دائمة، ثورة ضدّ الاضطهاد، ومتى انتهَى الاضطهاد (يتوقّفُ عن الحديث مدّةً طويلة، وحدَهُ بونتوفان يُجيدُ الوقفاتِ الطويلة والفعّالة، ثمّ بصوتٍ خافت) يكونُ الإنسانُ في ثورة ضدّ الشرط الإنساني الذي لا يدَ لنا في اختياره».

ثورة ضدّ الشرط الإنساني الذي لا يدَ لنا في اختياره. هذه العبارة الأخيرة، ثمرة ارتجاله، هو نفسه فاجأته، إنّها حقّاً عبارةٌ خلابة. تُبْعدُهُ عن خُطَب السياسيين، تجعله يتقاطعُ مع أكبر مُفكّري بلده. لقد كان مُمكناً أنْ يكتُبَ كامي مثل هذه العبارة، وهو ما يصدُقُ على مالرو وسارتر.

تومئ إيمّاكولاطا مُبتهجة إلى المُصور بإنهاء التصوير.

حينذاك، يقتربُ العالِمُ التشيكي من بيرك ويقول له: «خطابُك، بكلّ صدق، كان رائعاً جدّاً، لكن اسمح لي أنْ أقول لك إنّ ميكييفتش لم يكن...»

غير أنّ بيرك الذي انتابته بعد إنجازه الجماهيري نشوةٌ شبيهة بنشوة السُّكْر، يُقاطعُ العالم التشيكي بصوتٍ جافّ صاخب، قائلاً: «أعلمُ، يا زميلي العزيز، بل أعلمُ أكثر منك، أنّ ميكييفتش لمْ يكن عالم حشرات، وقلّما يحصُلُ للشعراء أنْ يكونوا علماءَ حشرات، هُم، رغم هذا النقص، مفخرةُ الإنسانية

Twitter: @ketab_n

جمعاء التي يُشكّلُ، بعد إذنك، علماءُ الحشرات بمَنْ فيهم أنتَ جزءاً منها».

قهقهة عالية مُخلِّصة تنفجرُ مثل بُخار يصّاعَد بعد انحباسٍ طويل. الواقع أنّ علماء الحشرات لمّا عاينوا نسيانَ هذا الرّجل، المنفعل من تلقاء نفسه، إلقاءَ مُداخلته، تملّكتهم جميعهم الرغبة في الضحك. لذلك خلّصَتْهم عباراتُ بيرك النابية من تردّدهم وأسْلمتهم للضحك من غير أنْ يُخفوا ابتهاجَهُم.

يتساءلُ العالِمُ التشيكي في سرِّه مُحتاراً: أين اختفى الاحترامُ الذي أبْداه زملاؤهُ تجاهه، قبل أقلّ من دقيقتين؟ كيف يُعقلُ أن يغرقوا في الضحك، أن يسمحوا لأنفسهم بذلك؟ أيُمكنُ الانتقال بمثل تلك السهولة من الإعجاب إلى الازدراء؟ (طبعاً، يا عزيزي، طبعاً) أهشٌّ هو التعاطفُ وعابرٌ إلى هذا الحد؟ (طبعاً، يا عزيزي، طبعاً)

في اللحظة ذاتها تقتربُ إيمّاكولاطا من بيرك، تُعلنُ له بصوتٍ قويّ جليّ، شِبهِ نشوان: «بيرك، بيرك، أنتَ رائعٌ، أنتَ كما عرفْتك! آه، تسحرني سُخريتك! لقد أذقْتني أنا أيضاً مَرارَتَها! أتذكُرُ أيامَ دراستنا بالثانوي؟ بيرك، بيرك، أتذكُرُ أنّك أطلقتَ عليّ اسمَ إيمّاكولاطا! وطائرَ الليل الذي أرَّقك! وشوّشَ على أحلامك! علينا أنْ نُنجزَ معاً فيلماً عنك. عليك أنْ تُسلِّم ألا أحداً غيري له الحقّ في إنجازه».

الضحكُ الذي كافأ به علماءُ الحشرات بيرك على الضربات المُسدَّدة إلى العالِم التشيكي، لايزالُ يرنُّ في رأس بيرك، ويجعله

Twitter: @ketab_n

كما لو في حالة سُكر. في مثل تلك اللحظات يغمُرُهُ رضاً كبيرٌ بالنفس، يُصبح مُهيَّأً لصراحةٍ غير محسوبةِ العواقب، تُخيفه، في الغالب، هو نفسه. لِنُسامحه مُسبقاً على ما هو مُقبلٌ عليه. يُمسكُ إيمّاكولاطا من ذراعها، يسحَبُها بعيداً عن الحشد حتّى يتّقي الآذان المتلصِّصة، ثمّ بصوتٍ خافتٍ يقولُ لها: «لتذهبي إلى الجحيم أيتُها العاهرةُ العجوز أنتِ وجاراتِك المريضات، لتذهبي إلى الجحيم طائرَ الليل، فزّاعة الليل، يا كابوسَ الليل، ذكرى حماقتي، صَرْحَ غبائي، قذارةَ ذكرياتي، بول شبابي النتن...»

تُصغي إليه رافضة أنْ تُصدِّقَ أنّها حقّاً تسمع ما تسمعُه. تعتقدُ أنّه يتوجّهُ بتلك الكلمات الشنيعة إلى شخصٍ آخر، كي يُخفي المعالمَ ويُموِّهَ الحضور، تعتقدُ أنّ كلماته ليست إلا حيلة لم تتبيّن مغزاها، لذلك تسأله بهدوءٍ وبراءة: «لِمَ تقولُ لي هذا الكلام، لِمَ؟ كيف عليّ أنْ أفهمَه؟

– عليكِ أنْ تفهميه كما هو! بالمعنى الحرْفي! تماماً بالمعنى الحرْفي! أنْ تفهَمي عاهرة بالمعنى الحرْفي لعاهرة، مُضجرة بمعنى مُضجرة، وكابوس بمعنى كابوس، وبول بمعنى بول!»

24

خلال كلِّ ذلك الوقت، تابعَ فانسون من حانةِ البهو هدفَ ازدرائه. المشهدُ بكامله جَرَى على بُعدِ عشرة أمتارٍ منه، لمْ يفهمْ شيئاً من الحديث، لكنّ ما بَدا له واضحاً هو أنّ بيرك كان يمْثلُ

Twitter: @ketab_n

أمامه كما رسَمه دوماً بونتوفان الذي يَرَى فيه مُهرّجَ قنواتٍ تلفزيونية، مُمثّلاً فاشلاً، مُتهافتاً على الظهور، يراهُ راقصاً. حضورُهُ هو فقط، من دون أدنى شكّ، ما جعلَ فريقاً تلفزيونياً يَقبَلُ مُتابعة مؤتمر علماء الحشرات. لقد راقبَهُ فانسون بدقّة وحلّل فنّ الرقص عنده، أي حرصه على ألا تُفارقَ عيناهُ الكاميرا، براعته في أنْ يتقدَّم الآخَرين، الأناقة التي بها يُصدِرُ حركة من يده كي يُسلِّط الأضواءَ عليه. في تلك اللحظة التي يُمسكُ فيها ببرك إيمّاكولاطا من ذراعها يفقدُ فانسون أعصابَه ويصرخ: «أُنظروا إليه، لا تهمُّه غير المرأة المسؤولة بالتلفزيون، لم يُمسك ذراعَ زميله الأجنبي، لا يهتمّ لأمْر زملائه، خصوصاً إنْ كانوا أجانب، التلفزيون مُعلّمُه الوحيد، عشيقته الوحيدة، خليلته الوحيدة، أراهنُ أنْ ليس له غيرها، أراهنُ أنّه أكبرُ خصيّ في الكون!

الغريب أنّ صوتَ فانسون كان، على الرغم من ضعفه الشنيع، مسموعاً تماماً. الواقع أنّ ثمّة مواقفَ يكون الصوتُ الضعيف ذاته مسموعاً فيها، أي عندما يَجْهرُ بأفكارٍ تثيرُ حنقنا. يواصلُ فانسون بَلوَرَةَ أفكاره بحسٍّ مرهفٍ ونبرة حاسمة، يتحدّثُ عن الراقصين، عن العَقد الذي برَموه مع الملاك، تستهويه فصاحته، فيزيد من غلُوّه كمَنْ يصعدُ درجات سُلّم يقودُ نحو السماء. ضمن الجَمْع، شابٌّ يحملُ نظارةً ويرتدي بذلة، يُصغي إلى فانسون، يُتابعُه بصبْر مثل وحشٍ يترصَّدُ فريسته. بعد أنْ استنفد فانسون فصاحتَهُ، يتوجّه إليه الشابّ قائلاً:

«سيدي العزيز، إننا لا نختارُ العصرَ الذي فيه نولد، نحن

Twitter: @ketab_n

جميعاً نحيا تحت عدسات الكاميرا. وهو ما أصبح، من الآن فصاعداً، جزءاً من الشرط الإنساني. حتّى عندما نشنّ حروباً، نخوضُها تحت عدساتِ الكاميرا. وعندما نريدُ أن نحتجّ على شيءٍ مّا، لا نُوَفّقُ في إسماع صوتنا من غير كاميرا. نحن جميعاً، بتعبيرك، راقصون، بل أكثر من ذلك، إمّا أننا راقصون أو هاربون. تبدو نادماً، سيدي العزيز، على تقدُّم الزمن. عُد إذاً إلى الماضي، إلى القرن الثاني عشر، أتصْبو إلى ذلك؟ هناكَ أيضاً سوف تحتج على الكاتدرائيات، مُعتبراً إيّاها همجية حديثة! ليس لك إذاً إلا أن تعودَ أبْعد من ذلك! كي تحيا مع القرود! حيث لا حداثة سوف تُهدِّدك. هناك سوف تكونُ في بيتك، في الجنّة الطّاهرة للقرود الآسيوية!»

لا شيءَ أكثر إهانة من افتقاد جوابٍ لاذع في مواجهةِ جارحة. هكذا، مِلءَ ارتباكٍ لا يوصَف، يضطر فانسون إلى الانسحاب بجُبن تحت دويّ ضحكٍ ساخر. بعد لحظة وجيزةٍ من الذهول، يتذكّرُ أنّ جولي تنتظره، يكرعُ كأسَ الويسكي التي ظلَّ مُمسكاً بها كما هي، في جرعةٍ واحدة، ثم يضعُها على الكونتوار، ويتناولُ كأسَيْ ويسكي، واحدة له والأخرى لجولي.

25

ظلّت صورةُ الرجل ذي البذلة المتناسقة مثل شوْكة مغروسةٍ في روحِه، لا يقوى على التخلّص منها. أمْرٌ شاقّ، خصوصاً

Twitter: @ketab_n

لِمَن يرومُ في الوقت ذاته إغواءَ امرأة. كيف يتسنّى له أنْ يُغويها إذا كان فكرهُ مُنشغلاً بشوكةٍ تُؤلِمُه؟

تستقبله بروحِها المَرحة قائلة: «أين كنتَ كلَّ هذا الوقت؟ اعتقدتُ أنّك انصرفتَ إلى حال سبيلك، وأنّك تريد التخلّص منّي».

يُدركُ من قولها أنها تتمسّك به، ممّا يُخفِّفُ من الألم الذي تُحدثه تلك الشوكة. يُحاولُ أن يبدوَ لطيفاً من جديد، لكنّ الارتياب لا يُفارقها:

«لا تختلق الأحاجي مِنْ أجلي. لقد تغيّرتَ عمّا كنتَ عليه قبل قليل. هل صادفتَ أحداً تعرفه؟

– أبداً، أبداً، يقول فانسون.

– بلى، بلى، لقد قابلتَ امرأةً. رجاءً، إنْ كنتَ تريدها أن ترافقك، فلك ذلك. قبْل نصف ساعةٍ فقط لمْ أكن أعرفك، باستطاعتي أن أواصلَ حياتي من غير أن أعرفك».

يتضاعفُ حُزنُ جولي. فلا بَلْسمَ أنجع للرجل من حُزنٍ يُحدثه لامرأة.

«ثِقي بي، ما مِن امرأةٍ قابلتُها. لقد صادفتُ شخصاً مُضجراً، قميئاً ومشؤوماً، دخلتُ معه في جدال. هذا كلُّ ما في الأمر». ثمّ يُقبِّلُ خدَّها بصدقٍ وحنانٍ أزاحا شكوكَها.

«ومع ذلك، فانسون، لقد تبدّلَ حالُك تماماً.

– تعالي»، ويدغوها إلى الحانة. يُريد أنْ ينتزعَ تلك الشوكة من روحه بسيْلٍ من الويسكي. لايزالُ الرجلُ ذو البذلة المتناسقة

Twitter: @ketab_n

في مكانه مع بعض رفاقه، لا امرأة توجَدُ قريبة منه، ممّا يُريحُ فانسون وهو رفقة جولي التي تبدو من لحظةٍ إلى أخرى أكثر جمالاً. يتناولُ مرّةً أخرى كأسيْ ويسكي، يُقدِّم لها واحدة ويَكرَعُ الأخرى بسرعة، ثمّ ينحني نحوها قائلاً: «أُنظري هناك، ذاك القميء ذو النظارة والبذلة المتناسقة.

- ذاك، لكنه تافهٌ للغاية، لا قيمة له، كيف تهتمّ لأمره؟

- أنتِ مُحقة، إنّه شاذ، عِنّين، خصيّ»، يقول فانسون ويشعرُ أنّ حضورَ جولي يُحرِّرُهُ من هزيمته، لأنّ الانتصارَ الحقيقي الذي وحدَهُ يُقوّيه هو الظفر بامرأة تَمَّ إغواؤها بأقصى سرعةٍ في وسط علماء الحشرات المُفتقِر لأيِّ جاذبيةٍ إيروسية.

«صدِّقني، إنّه تافهٌ، تافهٌ للغاية، تُكرِّرُ جولي.

- أنتِ مُحقّة، يقول فانسون، إنْ واصلتُ الاهتمام به، سوف أصيرُ قميئاً مثله». وهناك، قرب الحانة، يطبع قبلة على فمها أمام الجميع.

- إنّها قبلتهما الأولى.

يخرُجان إلى الحديقة، يتنزّهان ثمّ يتوقفان لتبادُل القبَل. بعد ذلك يجلسان على مقعدٍ وسط الخُضرة. من بعيد، يتناهَى إلى سمعهما خريرُ النهْر، يسرَحُ بهما في انخطافٍ لا يعرفان سَبَبَه، أمّا أنا فأعرفُ السَّبَب، إنّهما يسمعان نهْرَ السيدة ت.، نهْرَ ليالي حُبّها؛ ومِنْ آبار الزّمن يبعثُ قرْنُ الملذات إلى فانسون تحية سرّية.

وكما لو كان تلقّى تلك التحية، يقول لجولي: «قديماً،

Twitter: @ketab_n

شهدَتْ هذه القصور مُضاجعات جماعية، كان ذلك إبّان القرن الثامن عشر، الذي فيه ظهر ساد، الماركيز دو ساد، صاحب كتاب **الفلسفة في الصالون الصغير الحميم**، أتعرفين هذا الكتاب؟

- لا.

- ينبغي أنْ تطّلعي عليه. سأعيركِ إيّاه. إنّه يدورُ حولَ نقاشٍ بين رَجُليْن وامرأتيْن أثناء المُضاجعة.

- نعَم، تقولُ جولي.

- الأربعة جميعُهم عراة في لحظة مُضاجعة.

- نعَم.

- يروقك هذا، أليس كذلك؟

- لا أدري»، تقول. عبارة «لا أدري» ليست رفضاً. إنّها الصِّدقُ النافذ لتواضعٍ مثالي.

ليس انتزاعُ شوْكة أمراً هيّناً. نستطيع أنْ نتحكّم في الألم، أنْ نكبحَهُ، أن نتظاهرَ بأنّنا لمْ نعُد نفكّر فيه، لكنّ هذا التظاهر يتطلّبُ بذل الجهد. إذا كان فانسون يتحدث بشغف عن ساد وعن تحرّره الجنسي، فلأنّه يُحاولُ أنْ ينسَى الإهانة التي ألحقها به الرّجلُ ذو البذلة المتناسقة أكثرَ ممّا يُريدُ إفسادَ جولي.

«بل تَدْرين، ثمّ يضُمُّها إليه ويُقبّلها. تدْرين جَيداً أنّك تشتهينه»، ودَّ لو يستشهِدُ لها بعباراتٍ عديدة، يذكر لها أوضاعاً كثيرة مِمّا جاء في هذا الكتاب الخارق، الموسوم الفلسفة في الصالون الصغير الحميم.

بعد ذلك ينهضان ويُواصلان نزهتَهما. يُطلُّ البدر بعْدَ أن

Twitter: @ketab_n

انفتقَ ما يحجُبُه. ينظرُ فانسون إلى جولي فتسحرُهُ بغتة، لقد وَهبَها ضوءُ البدر جمالاً ساحراً فاجأه، لمْ يَرَه على وجْهها من قبل، إنّه جمالٌ رقيقٌ هشٌّ طاهرٌ منيع. فجأةً، دون أنْ يعلم حتّى كيف حصلَ ذلك، يتخيّلُ فُتحة مؤخّرَتِها. هكذا، على نحو فجائي لا مُتوَقّع، تطفو فُتحة مؤخّرتها التي لن يتمكّن بتاتاً من التحرّر منها.

آه، فُتحة المؤخّرة المُخلِّصة! بفضلها (أخيراً، أخيراً!) اختفت تماماً صورةُ الرجل ذي البذلة المتناسقة. ما لمْ تُفلح كؤوسُ الويسكي العديدة في تبديده، عرفت فُتحة المؤخّرة كيف تُحقّقه في ثانيةٍ واحدة! يضُمُّ جولي إليه، يُقبّلها، يتحسَّسُ جمالها الرقيقَ الساحر، وفي خلال ذلك كلّه يتخيّلُ باستمرار فُتحة مؤخّرتها. تحذوهُ رغبة جارفة في أنْ يقول لها: «ألامِسُ نهْدَيْك، لكنّني لا أفكّرُ إلا في فُتحة مؤخّرتك». غير أنّه لا يجْرُؤ، لا يُطاوعُهُ الكلام. بقدر ما يُفكّرُ في فُتحة مؤخّرتها يشتدُّ بياضُ وجْهِ جولي، يُصبحُ شفّافاً، ملائكياً حتّى يغدو مُستحيلاً عليه أنْ ينطقَ بصوتٍ مُرتفع.

26

تستسلمُ فيرا للنوم، بينما أقفُ أمام النافذة المُشرَعة أتابعُ شخصيْن يتنزّهان بحديقة القصر في ليلٍ مُقمِر.

فجأةً، يتناهَى إلى سمْعي إيقاعُ نفَس فيرا يتسارعُ، أقتربُ من

Twitter: @ketab_n

سريرها فأدركُ أنّها سوف تشرعُ بعد قليلٍ في الصراخ. لمْ يسبق لي أنْ عاينتُها تُواجه كابوساً! ما الذي يقعُ في هذا القصر؟

أوقظها، فتنظرُ إليّ بوجلٍ وقد أوْسَعَت عينيها. ثمّ تشرَعُ في الحَكي بعَجَل كما لو أصابتها نوْبة حمّى: «كنتُ في رواقٍ طويل جدّاً بهذا الفندق. فجأةً انبثقَ رجلٌ من بعيد وأخذ يركضُ نحوي. لمّا أصبح على بُعد عشرة أمتار تقريباً، شرع في الصراخ. تخيَّلْ، لقد كان يتحدّثُ باللغة التشيكية! عباراتُه واهنة تماماً: «ميكييفتش ليس تشيكياً! ميكييفتش بولوني!» ثمّ دنا منّي مُهدِّداً، فأيْقظْتَني وقتها.

- اسمحي لي، أقولُ لها، أنتِ ضحية العَناء الذي تقتضيه تآليفي.

- كيف ذلك؟

- كما لو أنّ أحلامَك سلّة مهملات أرمي فيها الصفحات المُتخلّى عنها.

- ما الذي يدورُ برأسك؟ أرواية هي؟» تسألُ خائفة.

أطأطئُ الرأس.

«قلتَ لي دوماً إنّك تتوقُ يوماً إلى كتابة روايةٍ تكونُ كلُّ كلماتها هزلية. سخافة كبرى لأجل مُتعتك. أخشى أن يكونَ الوقتُ قد حان. أودُّ فقط أنْ أنبّهَك: كنْ حذراً».

أطأطئ الرأسَ أكثر.

«أتذكُرُ ما كانت تقوله لك أمُّك؟ إنّي أسمَعُ صوتها كما لو وقعَ ذلك أمس: ميلانكو، كُفَّ عن الهزل. لا أحدَ سوف

Twitter: @ketab_n

يفهمُك. سوفَ تُلحِقُ الإهانة بالجميع، وينتهي الكلُّ إلى كُرْهك. أتذْكرُ ذلك؟

– نعم، أقول.

– حذار، الجِدُّ كان يحميك. أمّا الهزل فسوف يتركك عارياً أمام الذئاب. أنتَ تعلمُ أنّ الذئابَ تترصّدك».

بعد هذه الرؤيا المُرعبة، عادت إلى النوم.

27

في تلك اللحظة تقريباً، دخلَ العالِم التشيكي إلى غرفته كئيباً جريحَ الروح. لايزالُ الضحكُ الذي انفجر إثر تهكّم بيرك، يرنُّ في أذنه، يتساءل في سرِّه والحيرةُ لا تفارقه: أيُمْكنُ الانتقالُ بمثل تلك السرعة من الودّ إلى الاحتقار؟

الواقع أنّي أتساءَلُ أين اختفت القبْلة التي طبَعَها الحدثُ التاريخي الكوني الجليل على جبهته؟

إليكم ما يُخطئه مَن يسترزقون الأحداث، إذ يَفوتُهم أنّ الضوءَ المُسلّطَ على الظروف التي يُبرزُها التاريخ، يقتصرُ على الدقائق الأولى فقط لوقوعها. لا حدثَ يحتفظُ على فعّاليته خلال كلِّ مدّةِ وقوعه، هو كذلك فقط خلال ومضةٍ زمنية وجيزة جدّاً في مستهلِّ الوقوع. ألمْ يَعُدِ الموتُ يتهدَّدُ أطفالَ الصومال المحتضرين الذين تابعَ صورَهُم باهتمام بالغ ملايينُ المشاهدين؟ ما الذي حلَّ بهم؟ أتحَسَّن وزنُهم أم هُزِلوا؟ ألا يزالُ للصومال

Twitter: @ketab_n

وجود؟ وبعد كلّ ذلك، أسَبقَ له أنْ وُجدَ أصلاً؟

الطريقة التي بها يُروَى التاريخ المُعاصر شبيهة بجوقةٍ موسيقية كبيرة، فيها تُقدَّمُ بلا انقطاع المائة وثمانِ وثلاثون قطعة موسيقية لبيتهوفن، لكن بالاقتصار فقط على عزفِ الأوزان الثمانية الأولى لكلٍّ منها. إذا تكرَّرَ بعْدَ عشر سنوات عزفُ الجوقة الموسيقية ذاتها، فلن يُعزَفَ من كلِّ قطعةٍ موسيقية إلا النوطة الأولى. هكذا تُقدَّمُ المائة وثمان وثلاثون نوطة، خلال كلّ عزفٍ، مثل لحنٍ واحد. أمّا بعد عشرين سنة، فسوف تُختزَلُ كلُّ موسيقى بيتهوفن في نوطة واحدةٍ حادَّة، شبيهة بتلك النوطة اللا نهائية، العالية جدّاً التي سمعها أوّلَ يومٍ حلَّ به الصّمَم.

والعالِمُ التشيكي غارقٌ في حُزنه، تلوحُ له فكرةٌ تُسهِمُ في التخفيف من حاله، إذ يحتفظ من مرحلةِ العمل البطولي في قطاع بناءِ الشقق التي يُريد الجميعُ نسيانَها، بذكرى مادية ملموسة، تُجسِّدُها عضلاتُه المفتولة، فترتسمُ على مُحياهُ ابتسامة رضى خفيفة، لأنّه واثقٌ ألا أحدَ من الحاضرين يملكُ مثل عضلاته.

نعَم، صدِّقوا أو لا تُصدِّقوا. هذه الفكرة التي تبدو مُثيرةً للضحك، تجعله حقّاً أحسن حالاً. ينزعُ سترته، يتمدَّد على بطنه فوق الأرض، ثمّ يشرَعُ، معتمداً على عضلات ذراعيْه، في الصعود والنزول بجسده. يُعيدُ الحركة ستّاً وعشرين مرّة، فيشعرُ بالرّضى. يتذكّرُ عندما كان يتوجَّهُ للاستحمام بعْد العمل، صُحبة رفاقه عُمّال البناء، في بركة صغيرة كانت موجودة خلف الورشة. الحقّ أنّه كان حينذاك سعيداً أكثر مِمّا هو عليه اليوم في هذا

Twitter: @ketab_n

القصر مائة مرّة. كان العمّال يُلقّبونه إينشتاين، وكانوا يُحبّونه.

ثمّ تعِنُّ له فكرةٌ تافهة (ينتبه إلى تلك التفاهة، مع ذلك تَسُرُّه) أنْ يذهبَ إلى الغطس في مسبحِ الفندق الجميل. يتوقُ بزهوٍ مُبتهج وواعٍ تماماً إلى إظهار جسدِهِ لهؤلاء البؤساء من مُثقّفي هذا البلد المُتصنِّع المُتعالِم، والمُخادع إجمالاً. لحُسن الحظ أنّه حمَلَ معه سروالَ السباحة (يحمله معه أينما حلَّ وارتحل). يرتديه، ينظرُ إلى نفسه، نصفَ عارٍ، في المرآة. يطوي ذراعيْه، فتنتفخُ بروعةٍ عَضَلتَا عَضُدَيْه. يقولُ في سرِّه: «إذا كانَ أحدٌ يُريدُ أنْ يُنكرَ ماضيّ، فها هي عضلاتي دليلٌ لا يَقبلُ الدحض!» ثمّ يتخيّلُ جسدَهُ وهو يتجوّل حول المسبح، مُبرزاً للفرنسيين وجودَ قيمة أوّلية للغاية، هي كمال الأجسام، الكمال الذي لا فكرةَ لهم عنه، فيما هو يُمكنُهُ أنْ يزهوَ به. ثمّ يبدو له من غير اللائق نوعاً مّا أنْ يسير شبه عارٍ في أروقة الفندق، فيرتدي قميصاً. يبقى، بعد ذلك، أمْرُ قدميْه، إذ يبدو له من غير المُلائم أيضاً تركهما حافيتيْن أو انتعال خفّين، فيحتفظ بالجوربيْن وحسب. يتأمّلُ نفسَه مرّةً أخرى في المرآة، يمتزجُ حُزنه بالفخر من جديد، ويُساورُهُ مرّةً أخرى الإحساس بالثقة في النفس.

28

يُمْكنُ أن نُطلقَ على فُتحة المؤخّرة تسمية أخرى كما فعلَ مثلاً أبولينير لمّا عدّها «الباب التاسع لجسدك» في قصيدته عن

Twitter: @ketab_n

الأبواب التسعة لجسد المرأة. لهذه القصيدة نُسختان؛ الأولى بعثَ بها من خنادق الحرب إلى عشيقته لو في رسالة مؤرّخة يوم 11 ماي 1915، والثانية بعث بها من المكان ذاته إلى عشيقته مادلين يوم 21 سبتمبر من السنة نفسها. القصيدتان معاً رائعتان، مُختلفتان في مُتخيّلهما، إلا أنّ بناءَهما واحد، إذ خُصِّصَ كلُّ مقطعٍ فيهما لبابٍ من أبواب جسد العشيقة على النحو الآتي: العين والعين الأخرى، الأذن والأذن الأخرى، فُتحة الأنف اليُمنى وفُتحته اليُسرى، الفم، ثم، في القصيدة الموجَّهة إلى لو، «باب ردفيْك»، وأخيراً الباب التاسع، باب الفرْج. غير أنّ الأبواب تشهَدُ بغتة في نهاية القصيدة الثانية الموجَّهة إلى مادلين تحوّلاً غريباً. يتراجَعُ الفرْج إلى الموقع الثامن، فيما تُصبحُ فُتحة المؤخّرة مفتوقة «بين جبَليْ لؤلؤ» البابَ التاسع، تصبحُ «أكثرَ الأبواب غموضاً»، باب «الفِتن التي لا نجرؤ على الحديث عنه»، «الباب الأرقى».

أفكّرُ في الأربعة أشهر وعشرة أيام الفاصلة بين القصيدتين. أربعة أشهر قضاها أبولينير بخنادق الحرب غارقاً في هواجسه الشبقية الحادّة التي قادتْه إلى هذا التحوّل في الرؤية، وإلى الإعلان أنّ فُتحة المؤخّرة هي النقطة الخارقة، حيث تتركّزُ كلُّ طاقة العُري النووية. من المؤكّد أنّ بابَ الفرْج مُهمّ (من يجرؤ، طبعاً، على إنكار ذلك؟)، لكنّها أهمية وظيفية للغاية، لأنّه منطقة مُوثّقة، مُصنّفة، مُتحكَّمٌ فيها، مُفسَّرة، مفحوصة، مُجرَّبة، مُراقَبة، مُمجَّدة، مُحتَفى بها. الفرْجُ مُفترَقٌ صاخبٌ، فيه تلتقي

Twitter: @ketab_n

البشرية بضوضائها، نَفقٌ منه تعبُرُ الأجيال. وحدَهُم السّذج مَن ينساقون وراء الاعتقاد بأنّ هذه المنطقة حميمة، في حين هي الأكثر علانية من غيرها. المنطقة الحميمة الوحيدة حقّاً هي فُتحة المؤخّرة، الباب الأرقى، لأنّه الأكثر غموضاً وسرّية.

هذه الحكمة التي تطلّبت من أبولينير أربعة أشهر قضاها تحت دويّ القنابل، تسنّت لفانسون خلال نزهةٍ واحدة مع جولي التي جعلها ضياءُ القمر شفّافة.

29

ما أشقّ تلك الوضعية التي لا نقوى على الحديث فيها إلا عن شيء واحد، من غير أنْ يُطاوعنا، في الآن ذاته، الكلام عليه. فكلِمَتا فُتحة المؤخّرة المتمنّعتان على النطق، تظلان مثل كمامة على فم فانسون تُخرسُه. يرفعُ بصرَهُ إلى السماء كما لو كان يطلبُ العوْن، تستجيبُ له السّماء، تمدُّه بالإلهام الشعري، فيصرخ: «أُنظري» يُشيرُ بيده نحو البدر «إنّه مثل فُتحة مؤخّرةٍ في السماء!»

يُديرُ بصرَهُ جهة جولي، تبتسمُ شفّافة ناعمة، وتقول «نعم». لقد أصبحَتْ قبل ساعةٍ مُستعدّة لقبول أيّ قولٍ يصدُرُ عنه.

يسمعُ «نعم»، لكنّها لا تُشفي غليله. وَدَّ لو يسمعُ جولي التي تبدو عفيفة مثل فاتنة، تنطقُ بكلمتيْ «فُتحة المؤخّرة». يرغبُ أنْ يَرى فم الفاتنة الذي لها، يتلفّظ بهاتيْن الكلمتين، آه كم

Twitter: @ketab_n

يرغبُ في ذلك! ودَّ لو يقولُ لها: أعيدي معي: فُتحة المؤخّرة، فُتحة المؤخّرة، فُتحة المؤخّرة، لكنّه لمْ يجرؤ. ينساقُ وراء بلاغته، يتوغّلُ أكثر في استعاراته قائلاً: «فُتحة المؤخّرة التي منها يخرجُ الضوءُ الباهتُ الذي يملأ أحشاءَ الكون!» ويمُدُّ ذراعَهُ نحو البدر مُعلناً: «إلى الأمام، في فُتحة مؤخّرة اللا نهائي!»

لا أستطيع أنْ أمْنعَ نفسي من تسجيل تعليقٍ صغيرٍ على ارتجال فانسون هذا. هو يعتقد أنّه، بوسواس فُتحة المؤخّرة المُعلَن، يُحقّقُ تمسُّكَهُ بالقرن الثامن عشر، بساد، وبكلّ عصابة المُتحرّرين جنسياً، لكن، لمّا لمْ تكن لديه القوّة الكافية لِمُسايَرَةِ ذلك الوسواس كلّياً إلى أقصاه، فإنّ إرثاً مخالفاً جدّاً، بل مُعارضاً، ينتمي إلى القرن الذي بعْدَهُ، يهُبُّ لنجدته، أو بعبارةٍ أخرى، لمْ يكن فانسون قادراً على الحديث عن وساوسه المُتحرِّرَة جنسياً إلا بأسلوبٍ غنائي، بتحويلها إلى استعارات. هكذا يُضحّي بفكر التحرّر الجنسي لصالح فكر الشعر، ينقلُ فُتحة المؤخّرة من جَسَدِ امرأة إلى السماء.

آه، مؤسفٌ هذا النقل، يصعبُ استيعابه. كما أنّ الاستمرارَ في اقتفاءِ فانسون على هذا الطريق يُزعجني، هو لا ينفكّ يتعثّرُ مُكبَّلاً باستعاراته مثل ذبابةٍ علِقت في الصمغ، يصرخُ من جديد: «فُتحة مؤخّرة السماء شبيهة بعدسة كاميرا إلهية!»

تُكسِّرُ جولي، كما لو أنّها لاحظت تعبَهُما، تألُّقَ فانسون الشعري قائلة، وهي تُشيرُ إلى البهو المُضاء خلف الكوى الزجاجية، «لقد انصرفَ الجميعُ تقريباً».

Twitter: @ketab_n

يعودان إلى البهو. لمْ يبقَ أمام الطاولات إلا بضع أشخاصٍ لمْ ينصرفوا. الرجل الأنيق ذو البذلة المتناسقة غادرَ هو أيضاً. إلا أنّ غيابَهُ يوقظُ ذكراه لدى فانسون بقوّةٍ تُسْمعه من جديد صوته بارداً ولاذعاً، مصحوباً بضحكِ زملائه. يُساورُ الخجلُ، مرّةً أخرى، فانسون الذي يتساءَلُ في سرّه: كيف أمْكنه أنْ يَمْثلَ أمام الرجُل الأنيق مضطرباً إلى ذلك الحدّ؟ أنْ يمْثلَ بخرسٍ مُثير للشفقة؟ يُجهد نفسَه في إبعادِهِ من ذهنه، لكن بدون جدوى. إنّه يسمعُ كلماته من جديد: «نحن جميعاً نحيا تحت عدسات الكاميرا، وقد غدا ذلك جزءاً من الشرط الإنساني...»

ينسى تماماً جولي، ويتوقّفُ باندهاشٍ عند هاتين العبارتيْن. يا للغرابة، إنّ الدليلَ الذي يعتمدُهُ الرّجلُ الأنيق مُطابقٌ تقريباً لفكرته هو أيضاً. منذ وقتٍ قريب، اعترضَ فانسون على بونتوفان قائلاً: «إن شئتَ المشاركة في جدَلٍ عمومي، وتسليطَ الضوءِ على ظُلمٍ مّا، كيف يُمْكنك، في عصرنا، ألا تكونَ راقصاً أو ألا تظهرَ كذلك؟»

أهو ذا السببُ الذي كان وراء انزعاجه الكبير من الرجُل الأنيق؟ أكان تحليله أقربَ إلى تحليل الرجُل بما لا يُمكنه الرد عليه؟ هل نحن جميعاً في الورطة ذاتها، مندهشون من عالم تحوّلَ فجأةً تحت أقدامنا إلى مسرحٍ لا خلاصَ منه؟ أليس ثمّة إذاً أيّ اختلافٍ حقيقي بين ما يُفكّرُ فيه فانسون وما يُفكّرُ فيه الرجُلُ الأنيق؟

لا، لا يُطيقُ هذه الفكرة. إنّه يزدَري بيرك والرّجُلَ الأنيق،

Twitter: @ketab_n

ازدراؤهُ يتقدّمُ كلَّ أحكامه. بعنادٍ يحرصُ على تحديدِ اختلافٍ يفصلُ بينه وبينهما، إلى أنْ نجح في إدراكه بوضوح، هُما، في نظره، مثل خادميْن حقيريْن، يبتهجان بالشرط الإنساني كما هو مُمْلى عليهما، هُما سعيدان بأنْ يكونا راقصيْن، بينما هو، وإنْ كان يعرفُ ألا خلاصَ هناك، يجهَرُ باختلافه مع هذا العالَم. حينها يلوحُ لهُ الجوابُ الذي كان عليه أنْ يُلقي به في وجْه الرجُل الأنيق: «إذا كانَ العيشُ تحت عدسات الكاميرا شرطَنا، فإنّي أثورُ ضدَّه، أنا لمْ أختره!» هو ذا الجوابُ السديد! ينحني نحو جولي، بدون أدنى توضيح يقول لها: «الشيءُ الوحيد الذي تبقّى لنا هو الثورة ضدّ الشرط الإنساني الذي لمْ نختره!»

جولي التي تعوّدت على عبارات فانسون المُتنافرة، تجدُ تلك العبارة رائعة وتجيبُ بنبرةٍ نضالية: «طبعاً!»، ثم تضيفُ، كما لو أنّ كلمة ثورة زوّدَتْها بطاقةٍ مُبهِجة، «لنذهب معاً إلى غرفتك».

فجأةً، اختفت صورةُ الرّجل الأنيق من ذهن فانسون الذي ينظرُ إلى جولي مبهوراً بكلماتِها الأخيرة.

هي الأخرى أصابَها الذهول. لايزالُ، قربَ البار، بعضٌ من أولئك الذين كانت جولي رفقتهم قبل أن يُفاتحها فانسون بالكلام لأوّل مرّة. هُم مَنْ تصرَّفوا كما لو لمْ تكن موجودة، وأشعروها بالإهانة. الآن، أميرةً منيعة، تنظرُ إليهم، لا يُثيرون فيها أيّ شيء. أمامها ليلة حبّ. لها ذلك بفضل إرادتها وعزيمتها، تشعرُ بنفسها غنية، ومحظوظة، أقوى من كلّ هؤلاء.

Twitter: @ketab_n

تهمِسُ في أذن فانسون: «كلّهم عَنينون»، تعرفُ أنّها تستعملُ الكلمة التي وظّفها فانسون، تستعمِلها لِتُفهِمَه أنّها تمنحُهُ نفسَها، أنّها له.

كانت كما لو وضعَتْ في يده رمّانة غبطة تنتظر التفجير. أصبح مُمكناً الآن أنْ يذهبَ صُحبة مَنْ لها أجمل فُتحة مؤخّرةٍ إلى غرفته مباشرة. بيْد أنّه مضطر، كما لو كان يستجيبُ لأمْر قادم من بعيد، أنْ يزرَعَ الفوضى هنا أوّلاً. إنّه غارقٌ في دوّامة سُكْر، تختلطُ في ذهنه صورةُ فُتحة المؤخّرة، ودُنُوّ لحظة المُضاجعة، والصوت الساخر للرجل الأنيق، وظلُّ بونتوفان يقود، مثل مُتشبِّع بتروتسكي، من غرفته المُحصَّنة تحت الأرض في باريس، انقلاباً كبيراً، تمرّداً فوضوياً هائلاً.

«هيّا بنا نسبح»، يقول لجولي، وينزلُ السلّم راكضاً نحو المسبح الذي لمْ يكن به أحَدٌ في ذلك الوقت. تركضُ جولي خلفه وهو يفكّ أزرارَ قميصه. «هيّا بنا نسبح»، يُكرّرُ دعوته، ينزعُ سرواله قائلاً: «انزعي ثيابك!»

30

الخطابُ الذي وجّهَهُ بيرك إلى إيمّاكولاطا كان بصوتٍ خافتٍ وهامس، بحيث تعذّر على مَن حَوْلهُما إدراك حقيقة المسرحية التي تجري أمام أعينهم. فقد نجحت إيمّاكولاطا في إخفاء وَقْع ما سمِعت، ولمّا ترَكها بيرك، توجّهَتْ نحو السلّم،

Twitter: @ketab_n

صعدت الدرَج، لم تنتبه إلى ترنُّحِ دَبَّ في مشيتِها إلا بعْد أنْ وجدت نفسها وحيدةً في الرّواق الخالي الذي يُفضي إلى الغُرف.

بعد نصف ساعة، حلَّ المُصور بالغرفة التي يتقاسمُها معها، خاليَ الذهن، وجَدها مُمدّدةً على بطنها فوق السرير.

«ما الذي يُضايقك؟»

لا جوابَ يصدُر عنها

يجلِسُ إلى جوارها، يضعُ يدهُ على رأسها، فتتبرَّمُ بحركةٍ من رأسها كما لو أنّ أفعى لسَعَتْها.

«ولكن ما الذي يُضايقك؟»

كرَّرَ السؤالَ نفسَه مرّاتٍ عديدة إلى أنْ قالت: «رجاءً، قمْ لتنظيف فمِك، إنّي لا أطيقُ نَفَسَكَ الكريه».

لمْ يكن نَفَسُه كريهاً، هو دوماً حريصٌ على نظافة فمه ونقائه بدقّة. كان واثقاً أنّها تكذب، مع ذلك استجابَ لأمْرها وتوجّه طيّعاً إلى الحمّام.

لمْ تلُح لإيمّاكولاطا فكرةُ النفَس الكريه من لا شيء. ذكرى حديثة كبَحَتها للتوّ هي التي أوْحَت لها بتلك الفظاظة، ذكرى نفَسِ بيرك الكريه. عندما كانت تُصغي إلى شتائمِه، لمْ تكن في حالةٍ تسمحُ لها بالاهتمام بما يفوحُ من فمه، نابَ عنها في تخزين تلك الرائحة مُراقبٌ خفيّ بداخلها، أضافَ أيضاً هذا التعليقَ الملموس بوضوح: لا عشيقة لرجلٍ ذي فمٍ نتن، لا امرأة كانت لترْضَى به، كلُّ واحدةٍ كانت ستجدُ الوسائلَ لإطْلاعه على نفَسِه الكريه كي تُرغمَه على التخلّص منه. كانت إيمّاكولاطا

Twitter: @ketab_n

تُنصتُ، تحت وابلِ الشتائم، لهذا التعليق الخافت الذي بَدَا لها مُبهجاً وواعداً، يُطْلعها على أنَّ بيرك مُنصرفٌ منذ مدّةٍ طويلة عن مُغامراتِ العشق، على الرغم من شبَح النساء الجميلات الذي يَدَعُهُ يحومُ حوله بمَكر، يُطْلِعُها على أنّ مكاناً فارغاً، إذاً، على سرير بيرك ينتظرُها.

المصورُ رومانسي وعمَلي في آن، لذلك قالَ في سرّه، وهو يُنظّفُ فمَه، إنّ الطريقة الوحيدة لتحسين المزاج العكر لرفيقته هو مُضاجَعتُها في أقرب وقتٍ مُمكن. يرتدي مَنامَتَه في الحمّام، ويعود بخطى مُتردِّدة كي يجلس على حافّة السرير قريباً منها.

يقولِ مرّةً أخرى مِن غير أن يجرؤ على لمْسها: «ما الذي يُضايقك؟»

تُجيبُ بعناد: «إذا لمْ تكن قادراً إلا على قوْل هذه العبارة البلهاء، فإنّي أفترضُ ألا شيء يُرْجَى من الحديث معك؟»

تنهضُ صوبَ خزانة الملابس، تفتحُها كي تتأمّل الفساتين القليلة التي علّقتها بها، تسحرُها تلك الفساتين، توقظُ فيها رغبة غامضة قوية لئلا تنسحِبَ من المسرحية، رغبة أن تعبُر ثانية مواضع وقوع الإهانة، ألا تُسلِّم بهزيمتها. إنْ كانت ثمّة هزيمة، عليها أنْ تُحوّلها إلى فُرجة هائلة، فيها تجعلُ جمالها الجريحَ يتألّق، مُبرزةً كبرياءَها الثائر.

«ماذا تفعلين؟ إلى أين أنتِ ذاهبة؟ يقول.

- لا يهمّ، المهمّ ألا أبقى بجوارك.

- لكن، أخبريني ما الذي يُضايقك!»

Twitter: @ketab_n

- «للمرّة السادسة تُعيدُ هذه العبارة» تلاحظ إيمّاكولاطا وهي تُواصلُ تأمّلَ فساتينها. أشيرُ إلى أنّها لمْ تُخطئ في العد.

- «لقد كنتِ رائعة»، يقول وقد قرَّرَ صرْفَ النظر عن مزاجها، «حسناً فعَلْنا لمّا صمَّمْنا على المجيء. يبدو لي مشروعك التلفزيوني مع بيرك ناجحاً. لقد طلبتُ إحضارَ قنّينة شامبانيا إلى الغرفة.

- يُمكنكَ أن تتناول ما تشاء مع مَن تشاء.

- لكن، ما الذي يُضايقك؟

- إنّها المرّة السابعة التي تُعيدُ فيها هذه العبارة. لقد انتهى ما بيننا إلى الأبد. مَللتُ الرائحة المُنبعثة من فمك. أنتَ كابوسي، حُلمي المُزعج. أنتَ إخفاقي، خِزيي، مَهانتي، وتقزّزي. عليّ أنْ أقولَ لكَ هذا بفظاظة، من غير تمديدِ تردُّدي، من غير تمديدِ كابوسي، من غير تمديدِ القصّة التي لمْ يعُدْ لها أيّ معنى».

واقفة أمام خزانة الملابس، تُديرُ ظهرَها للمُصور وهي تُقلّبُ الفساتين، تتحدّثُ بهدوءٍ واتّزان، بصوتٍ خافت هامس، ثمّ تشرعُ في نزْع ملابسها.

31

إنّها المرّة الأولى التي تتجرّدُ من ثيابها أمامه بمثل تلك الجُرأة وتلك اللا مبالاة الواضحة. تروم بذلك أنْ تقول له:

Twitter: @ketab_n

حضورُكَ هنا، أمامي، لا قيمة له، حضورُكَ لا يختلفُ عن حضور كلبٍ أو فأر. نظراتُك لا تُحرِّكُ أدنى شعرة في جسدي. أستطيع القيام بأيّ شيء أمامك، بما فيها الأفعال المُقزّزة. أستطيع أن أتجشأ أمامك، أن أنظّف أذني، أنظف فرْجي، أستمني، أتبوّل. أنتَ عينٌ لا ترَى، أذنٌ لا تسمع، رأسٌ لا يفكّر. لا مبالاتي بكبرياء ستارٌ يسمحُ لي بالحركة أمامك بكلِّ حرية، بلا حشمة.

يرَى المصورُ جسدَ عشيقته يتحوّلُ تماماً أمام عينيه. الجسدُ الذي كان، إلى زمنٍ قصير، يمنحُ نفسه له ببساطة وسرعة، ينتصبُ أمامه مثل تمثالٍ إغريقي مرفوعٍ على قاعدةٍ بعُلُوّ مائة متر. تفترسُ الرغبة المُصور، رغبة غريبة لا تتجلّى حسّياً، بل تملأ رأسَه، لا شيء غير رأسه، الرغبة بما هي فتنة عقلية، فكرةٌ ثابتة، جنونٌ عقلي، وبما هي اليقينُ بأنّ هذا الجسدَ وحدَهُ لا سِواه، منذورٌ لإرضاء حياته، كلّ حياته.

تشعُرُ بتلك الفتنة وذلك الإخلاص اللصيقيْن بجلده، ثم تعلو رأسَها موجة بُرود. تُفاجئها هي نفسها، لمْ يسبق لها أنْ عرفت موجة مثلها. كما للشغفِ والدفء والغضب موجاتُه، للبُرود موجته، لأنّ له حقّاً شغفَه، كما لو أنّ إخلاصَ المُصور المُطلق ورفضَ بيرك المُطلق كانا وَجْهَيْن للّعنة ذاتها التي تُقاومُها، كما لو كان صدُّ بيرك لها يُريد أن يُلقي بها في أحضان عشيقها المُعتاد، وأنّ الطريقة الوحيدة للردّ على هذا الصدّ هي كرهٌ مطلقٌ تجاه هذا العشيق. هو ذا السّبب الذي من أجله ترفضُ

Twitter: @ketab_n

العشيقَ بمثل هذا الحنق، تتمنّى تحويله إلى فأر، ثمّ إلى عنكبوت، ثمّ إلى ذبابة تلتهمها عنكبوتٌ أخرى.

كانت قد ارتدت فستاناً أبيض، وقرّرت النزولَ للتباهي أمام بيرك والآخَرين. سعيدةً بارتداء فستان أبيض، لونِ الزفاف، يُخالجها إحساسٌ بأنّها تعيشُ ليلة زفاف، زفاف عكسي، زفاف درامي بلا زوج. ترتدي تحت فستانها الأبيض جُرحَ حيفٍ، تشعرُ أنّها تكبرُ بهذا الحيف، تتزيّنُ به مثلما تتزيّنُ الشخصيات التراجيدية بمآسيها. تتوجّهُ نحو الباب، تعلمُ أنّ الآخَر سوف يخرجُ بمنامتِه مُقتفياً أثرَها، يمشي خلفها مثل كلبٍ يُحبُّها، تحذوها رغبة أنْ يخترقا القصْر على هذه الصورة، مثل ثنائي تراجيدي مُضحك، مَلِكة يتبعها كلبٌ هجين.

32

غير أنّ الذي نزلت به إلى الحالة الكلبية يُفاجئها، ينتصبُ واقفاً أمام الباب بوجهٍ غاضب. لقد نفِدَتْ بغتة طاقتُه في الخنوع، تجتاحُهُ رغبة يائسة في اعتراض الجَمال الذي يُهينه بغير حقّ. لمْ يجِد الشجاعة الكافية كي يصفعَها، يُعنِّفها، يُلقي بها على السرير ويغتصبها، لكنّه أحسَّ أكثر بضرورةِ أنْ يتسبَّبَ لها في شيء لا يُرَمَّم، شيءٍ جارح للغاية وعنيف.

وهو ما أجبرَها على التوقّف عند عتبة الباب.

«دعْني أمُرّ، تقول

Twitter: @ketab_n

- لن أدَعَكِ تمُرّين، يقول لها

- لمْ يعُد لكَ وجودٌ بالنسبة إليّ

- كيف؟ لا وجودَ لي؟

- أنا لا أعرفك»

يضحكُ ضحكة مُتشنّجة: «لا تعرفينني؟»، ثمّ يرفعُ صوته «هذا الصباح فقط ضاجَعْتك.

- لا أسمحُ لك أنْ تُحدّثني على هذا النحو، بتلك الكلمات تحديداً!

- أنتِ نفسُك، هذا الصباح فقط، قلتِ الكلمات ذاتها، قلتِ لي ضاجعْني، ضاجعْني، ضاجعْني!

- كان ذلك لمّا كنتُ لاأزالُ أحبّك، تقول مُنزعجة نوعاً مّا، لكنّ تلك الألفاظ الآن كلامٌ بذيء»

يصرخُ «ومع ذلك ضاجعْتكِ!

- لا أسمحُ لك!

- هذه الليلة أيضاً ضاجعْتُكِ، ضاجعْتُكِ، ضاجعْتُك!

- كفى!

- كيف تستطيعين تقبُّلَ جسدي صباحاً وتنفرين منه في المساء؟

- أنتَ تعلمُ أنّي أمقتُ التفاهة!

- لا يعنيني ما تمقتينه! أيتها العاهرة!»

آه، ما كان عليه أنْ يتلفّظ بهذه الكلمة، هي نفسُها الكلمة التي نطقَ بها بيرك. تصرخُ: «التفاهة تُقزّزُني، وأنتَ تُقزّزني!»

Twitter: @ketab_n

يصرخُ هو أيضاً: «لقد ضاجَعْتِ إذن أحداً يُقزِّزكِ! والمرأة التي تُضاجعُ شخصاً يُقزِّزُها هي تحديداً عاهرة، عاهرة، عاهرة!»

كلماتُ المُصور أصبحت أكثر فأكثر بذيئة، فارتسمَ الخوفُ على مُحيّا إيمّاكولاطا.

الخوف؟ أهي حقّاً خائفة؟ لا أعتقد. هي تعلمُ جيداً في قرارةِ نفسها أنّ عليها ألا تُبالغَ في تصديق هذا التمرّد، تعلمُ خنوعَ المُصور، لا يُساورُها أدنى شكّ في ذلك. تعلمُ أنّه يشتمها، لأنّه يُريدُ أن يكونَ مسموعاً، مرئياً وذا وزن. يشتمُها لأنه ضعيف، لا يملكُ بديلاً عن القوّة غير كلامه البذيء وألفاظه العنيفة. لو كانت تُحبُّه، وهو ما لنْ يكونَ إلا بقدْرٍ قليل جدّاً، لاضطرّت أنْ ترِقَّ لانفجاره العاجز اليائس هذا. لكنّها عوضَ أنْ ترقّ، تشعرُ برغبة جامحة في إيلامه. لهذا السّبب تحديداً تُقرِّرُ أن تتلقّى كلماتِهِ بمعناها المُباشر، أنْ تُصدّقَ شتائمَه، أنْ يتملّكها الخوف. وهو ما يجعلها تُثبّتُ عينيْها في عينيه وتتظاهَر بالخوف.

يرَى الخوفَ على مُحيّا إيمّاكولاطا فيتشجّع. في العادة، هو دوماً مَن يُصابُ بالخوف، مَن يتنازلُ ويعتذر. لكن، لأنّه أظهرَ، حسبَ ما عنَّ له، قوّتَه وغضبه فجأةً، فهي التي ترتجف. يرفعُ صوته، يُواصلُ إطلاقَ حماقاته العنيفة العاجزة، اعتقاداً منه أنّها تُقرُّ بضعفها وخضوعها. لا يدري المسكينُ أنّه بذلك يُؤدّي لها الدّور الذي أدّاهُ دوماً، أي إنّه يظلُّ أداةً تُحرِّكها حتى في اللحظة التي يعتقدُ أنّه عَثرَ في غضبه على القوّة والحُرية.

تقولُ له: «إنّكَ تُخيفني. أنتَ مقيتٌ وعنيف» مِنْ غير أنْ

Twitter: @ketab_n

يعلمَ المسكينُ أنّ هذا الاتهامَ سيُلاحقه دوماً، هو خرقة الطّيبَةِ والخنوع سوف يُصبحُ مُغتصِباً وعنيفاً.

«إنّكَ تُخيفني» تقولُ له مرّةً أخرى وتُزيحُه مِن أمامِها كي تتمكّنَ من الخروج.

يَدَعُها تمُرّ، ويتبعها مثل كلبٍ هجين يتبعُ مَلِكة.

33

عن موضوع العُري، لاأزالُ أحتفظ باستطلاعٍ للرأي مُقتطَعٍ من مجلة **نوفيل أوبسرفاتور** عدد أكتوبر 1993، تمَّ فيه إرسال لائحة من مائتيْن وعشر كلمات إلى ألفٍ ومائتيْ شخص من اليساريين، كي يُسطِّروا على الكلمات التي تفتِنُهم، تثيرُ أحاسيسَهم، ويجدونها جذابة ولطيفة. سنواتٌ قليلة قبل ذلك تمَّ إجراءُ الاستطلاع نفسِهِ. وفيه تمّ اختيار، من بين المائتين وعشر كلمات، ثماني عشرة كلمة، اتّفقَ اليساريون حولها، وبها أبانوا عن حساسيةٍ مُشتركة. أمّا اليوم، فالكلماتُ المُختارة لمْ تتجاوز ثلاثاً. أثلاثُ كلمات فقط هي التي يُمكنُ أنْ يتّفقَ اليسارُ حولها؟ أيّ انحسارٍ هذا وأيّ تراجُع! ما هي تلك الكلمات الثلاث؟ انتبهوا جيداً، إنّها: ثورة، أحمر، وعُري. الأمْرُ بدهي بشأن كلِمَتيْ ثورة وأحمر. لكن باستثناء هاتيْن الكلمتيْن، وحْدَها كلمة عُري تُحرِّك قلوبَ اليساريين، وحْدَها تظلُّ إرْثهُم الرَّمزي المُشترَك. أمْرٌ مُدهشٌ حقّاً. أهذا كلُّ ما ترَكتْهُ لنا مئتا سنة من

Twitter: @ketab_n

التاريخ المجيد الذي أرْسَتْه ببهاءٍ الثورة الفرنسية؟ أهو ذا الإرثُ الذي ترَكه روبسبيير، ودانتون، وجوريس، وروزا لوكسمبورغ، ولينين، وغرامشي، وأراغون، وتشي غيفارا؟ العُري؟ البطون والخُصَى والأردافُ العارية؟ أهي ذي اليافطة الأخيرة التي بها تتباهَى الفيالقُ الأخيرةُ من اليسار في مسيرتها الكبْرى عبْر القرون؟

لكن، ما مُسوّغ اختيار كلمة عُري بالضبط؟

ماذا تعني هذه الكلمة لليساريين الذي سطَّروا عليها في لائحةٍ بعثت بها إليهم مؤسّسة استطلاعٍ للرأي؟

أتذكّرُ مواكبَ اليساريين الألمان في السبعينيات الذين كانوا كلّما أرادوا التعبيرَ عن غضبهم تجاه شيءٍ ما (محطّة نووية، حرب، سلطة المال، وتجاه ما لا أدري) تجرَّدوا تماماً من ملابسهم في مسيرةٍ صاخبة تشملُ مُختلف شوارع مدينة ألمانية كبيرة.

عمّ كان يُعبّرُ عُرْيُهم؟

الفرضية الأولى: كان يُجسِّدُ، في نظرهم، أغلى الحُريات، القيمة المُهدَّدة أكثر من بين كلِّ القيم. لقد اخترقَ اليساريون الألمان المدينة بأعضائهم الجنسية المكشوفة مثل المسيحيين المُضطَهَدين، الذي كانوا يُقادون إلى الموت حاملين على أكتافهم صليباً من خشب.

الفرضية الثانية: لمْ يكن هدَفُ اليساريين الألمان أنْ يعْرضوا لرمز قيمةٍ ما، بل كانوا ببساطة ينوون إحداثَ صدمةٍ لدى

Twitter: @ketab_n

الجمهور المقيت، أنْ يصدموه ويُفزعوه ويُثيروا غضبَه، أنْ يَقصِفوه بروْث فيل، ويصبّوا عليه كلَّ مياهِ الكون العديمة.

إنّه مأزقٌ غريب، فهل يرمزُ العُرْيُ إلى أكبر قيمةٍ بين القيم أم إلى أكبر قاذورة تُلقى مثل قنبلةِ غائطٍ على حشدٍ من الأعداء؟

ما الذي يُمثله العُريُ إذاً لفانسون الذي يقول لجولي أكثر من مرّة: «انزعي ثيابك»، ويُضيف: «هيّا إلى تمثيلية مُرتَجَلة كبرى على مرأى الشواذ!»؟

وما الذي يُمثله العُريُ لجولي التي تقولُ بهدوء، بل بنوعٍ من الحماس: «لِمَ لا»، وتفكّ أزرارَ فستانها؟

34

هو الآن عارٍ. يظلُّ مُندهشاً قليلاً، يضحكُ ضحكة يقطعها سُعالٌ خفيف، مُوجّهة إليه أكثر ممّا هي مُوجّهة إلى جولي. بَدَا له من غير المعتاد أنْ يكونَ عارياً على هذه الصورة في مكان واسعٍ شفّاف، حتّى لمْ يَعُدْ مُهيّأ للتفكير إلا في غرابة الوضع لا غير. كانت هي أيضاً نزَعَت للتوّ صدريتها وسروالها الداخلي، إلا أنّ فانسون لا يراها حقّاً. يُلاحظ أنّها عارية من غير أنْ يعرفَ كيف تبدو لمّا تعرَّت. لنتذكّر أنّ هاجسَ صورةِ فُتحة مؤخّرتها كان، قبل لحظاتٍ قليلة، مُسيطراً عليه، ألا يزالُ الآن يُفكّرُ في الفُتحة بعد أنْ تخلّصت من حرير السروال الداخلي؟ لا، لقد اختفت صورةُ فُتحة المؤخّرة من رأسه. وعوضَ أنْ يتأمَّلَ بتمعُّن

Twitter: @ketab_n

الجسَدَ الذي تعرّى أمامه، أنْ يقتربَ منه، أنْ يتمثله ببُطء، ولربّما يلمسه، يستديرُ ويغطسُ في الماء.

شابٌّ غريبٌ هو فانسون. يُهاجمُ الراقصين، يدخلُ في هذيانٍ بشأن البدر وهو، أساساً، ذو ميْل رياضي. يغطسُ في الماء، يشرعُ في السباحة، ينسى عُريَه وعُريَ جولي، لا يُفكّرُ إلا في السباحة. خلفه جولي التي لا تُجيدُ الغطس، تنزلُ سلّم المسبح بحذر. لا يُكلّفُ فانسون نفسَه الالتفات لرؤيتها، إنّها فاتنة للغاية. يبدو جسدُها كما لو أنّه يشِعّ، لا بحشمتها بل بشيءٍ أشدّ بهاءً، بحميميتها المُنزوية الخرقاء، لأنّها واثقة، مادام فانسون لا يرفعُ رأسَه من الماء، ألا أحَدَ يَرَاها. يبلغُ الماءُ، بالناحية التي فيها تنزلُ، ارتفاعاً يُقاربُ حدَّ انسدال شعَرها. يبدو لها بارداً، تودُّ لو تغوصُ فيه، إلا أنّها لا تجرؤ. تتوقّفُ مُتردّدةً، ثمّ تنزلُ بحذرٍ درجاً آخر إلى أنْ يبلغَ الماءُ سُرّتَها، تُبلّلُ يدَها، تُمرّرُها على نَهديْها للاستئناس ببرودة الماء. جميلٌ حقّاً النظر إليها. فانسون الطيّب، لا يُبالي بالأمر، أمّا أنا فأرَى أخيراً عُرياً لا يرمُزُ إلى أيِّ شيء، لا إلى الحُرية ولا إلى القذارة، عُرياً مُجرّداً من كلِّ دلالة، عُرياً عارياً، كما هو، خالصاً، يفتِنُ رَجُلاً.

أخيراً تشرعُ في السباحة. تسبحُ بإيقاعٍ أبطأ كثيراً من إيقاعِ فانسون، ترفعُ رأسَها بارتباكٍ إلى الأعلى. وهي تدنو من السلّم كي تخرجَ من الماء، كان فانسون قد قطعَ الخمسة عشر متراً لطول المسبح ثلاث مرّات. يُسرعُ في الالتحاق بها. وهُما على حافّة المسبح، تصِلهما أصواتٌ من البهو.

Twitter: @ketab_n

يَشرعُ فانسون، مدفوعاً باقتراب مجهولين غير مرئيين، في الصراخ: «سوف أضاجعُكِ من الدّبُر»، ملامحه، وهو يُسْرعُ نحوها، تقلّدُ وحشاً.

لِمَ لمْ يجرؤ، في نزهتِهما الحميمة، أنْ يهمسَ لها ولو بكلمة فاحشةٍ واحدة، والآن، لمّا أصبح مُهدّداً بأنْ يسمَعَه أيٌّ كان، يصرُخُ بذلك الكلام الفاحش؟

تحديداً، لأنّه غادرَ منطقة الحميمية. الكلمة المنطوقة في مكانٍ صغير مُغلق تَعني هي ذاتُها شيئاً آخر عندما تُدوّي في مُدرّج، لمّا تُدوّي يكفُّ مَن نطقَ بها عن أن يكونَ مسؤولاً عن هذه الكلمة التي لا تخصُّ شريكتَهُ وحْدَها، إنّها كلمة يُطالِبُ الآخرون بسماعها، هُم هنا ينظرون إليهما. صحيحٌ أنّ المدرّج خالٍ، إلا أنّ الجمهور المُتخيَّل والخيالي، المُحتمَل والافتراضي، حاضرٌ معهما.

يُمكنُ أن نتساءلَ مِمّن يتكوّنُ هذا الجمهور، لا أعتقد أنّ فانسون يستحضرُ مَن رَآهم في المؤتمر. الجمهور الذي يُحيطُ به الآن وفيرٌ مُلحٌّ مُتطلّب مُتلهِّفٌ ومُتعطّش، لكنّ هذا الجمهورَ، في الآن ذاته، غيرُ مُحدَّد، جمهورٌ بوجوهٍ ملامحُها ممحوّة. أيعني ذلك أنَّ الجمهور الذي يتخيّله، هو نفسُه الذي يحلمُ به الراقصون؟ جمهورٌ لا مرئيّ؟ الذي عنه يبني بونتوفان نظرياته؟ أهو العالَم أجمع؟ لا نهائيٌّ بلا وجوه؟ أهو تجريد؟ ليس تماماً، لأنّ خلفَ تلك الأصوات الصاخبة المجهولة تتكشّفُ وجوهٌ محسوسة؛ وجهُ بونتوفان ووجوهُ باقي رفاقه، وهم يُتابعون

Twitter: @ketab_n

المشهد مُتسلّين، يُتابعون فانسون وجولي والجمهورَ المجهول الذي يُحيط بهما. من أجلهم يصرُخ فانسون بتلك الكلمات، مُتوسِّلاً رضاهم واستحسانهم.

«لن تُضاجعَني من الدّبُر!» تصرخُ جولي التي لا تعرفُ شيئاً عن فانسون، تُطلِقُ هي الأخرى هذه العبارة من أجل كلِّ مَن يُمكنه، وإنْ لمْ يكن معهم، أن يكون حاضراً. أتتوسَّلُ هي أيضاً رضاهم؟ نعم، لكنّها لا تتوسّله إلا لِتروقَ فانسون. تُريدُ أن تنالَ تصفيق جمهور مجهول لا مرئي كي يُحبَّها الرّجلُ الذي اختارته لهذه الليلة، ومَنْ يدري؟ لليالٍ أخرى قادمة. تركضُ حول المسبح، فيتمايلُ نهداها بابتهاج يميناً ويساراً.

عباراتُ فانسون تغدو جريئة أكثر فأكثر، وحْدَها خصيصتُها الاستعارية ما يُضفي عليها نوعاً ما ظِلاً يسترُ ابتذالها الشديد.

«سوف أفتحُ فيكِ ثقباً بعضوي وأسَمِّرك على الجدار!

- لن تُسمِّرَني!

- سوف تظلّين مصلوبة على سقف المسبح!

- لن أظلَّ مصلوبة!

- سوف أمزِّقُ فُتحة مؤخّرتك تحت أنظار العالَم!

- لن تُمزّقها!

- العالَمُ كلّه سوف يرى فُتحة مؤخّرتك!

- لا أحدَ سيَرى فُتحة مؤخّرتي!» تصرخُ جولي.

في تلك اللحظة، تصِلهما من جديد أصواتٌ يبدو أنّ دُنوّها يُثقلُ الخطى السريعة لجولي ويُجبرها على التوقف. تُسرعُ في

Twitter: @ketab_n

الصراخ بصوتٍ حادّ مثل امرأةٍ سوف تتعرّضُ بعد ثوانٍ لعملية اغتصاب. يُمسِكُ بها فانسون ويسقطان معاً على الأرض. تنظرُ إليه بعينين واسعتيْن، مُترقّبة إيلاجاً تُقرّرُ ألا تصُدَّه. تُفرجُ بين فخذيها، تُغمضُ عينيها وتُميلُ برفقٍ رأسَها.

35

لمْ يحصُل الإيلاج، لأنّ قضيبَ فانسون يظلُّ مُرتخياً مثل توتةِ أرضٍ على عروشٍ ذابلة، مثل كشتبان جدّةٍ مُسِنّة.

لِمَ هو ذابلٌ إلى هذا الحدّ؟

أتوجّه بالسؤال مباشرةً إلى قضيبِ فانسون، فيُجيبني باندهاشٍ واضح: «ما الذي يمنعُ ألا أبقى ذابلاً؟ لمْ أرَ داعياً لأنْ أنتصب! صدِّقني، لمْ تخطر هذه الفكرةُ حقّاً ببالي. لقد تابعْتُ، في تناغمٍ مع فانسون، هذا الركضَ الغريبَ حول المسبح، مُتلهِّفاً لرؤية ما سوف يقع! وتسلّيتُ كثيراً! الآن سوف تتّهمُ فانسون بالعجز! رجاءً، لا تُقْدِم على ذلك! اتهامُكَ يُمكنُ أنْ يجعلني بغير حقّ مُذنباً على نحو فظيع، لأنّنا نحيا معاً في تناغم تامّ، أقسمُ لك أنّه لمْ يسبق أنْ خذلَ أحدُنا الآخَر. كنتُ دائماً فخوراً به كما هو فخورٌ بي!»

لقد صدَقَ القضيب. ومن جهةٍ أخرى، لمْ ينزعِج فانسون من تصرّفه، خلافاً لما هو مُتوقّع. لو تصرَّفَ قضيبُه على هذا النحو في لقاءٍ حميم بشقّته ما كان لِيغفرَ له أبداً. أمّا في هذا

Twitter: @ketab_n

المكان، فإنّ فانسون مُستعدٌّ لاعتبار ردِّ فعلِ القضيب صائباً، بل بالأحرى مُهَذباً. هكذا يُقرِّرُ أن يتقبّل الأشياءَ كما وقعت، مُتظاهراً بمُضاجعة جولي.

لمْ تشعُر هي الأخرى لا بالانزعاج ولا بالإحباط. إحساسُها بحركاتِ فانسون فوق جسدِها مِن غيْر أثرٍ داخلي يبدو لها أمْراً غريباً، لكنّه مقبولٌ إجمالاً، فتستجيبُ له بحركاتها الخاصّة.

الأصواتُ التي وَصَلت سمعَهُما بدأت تتوارى، غير أنّ صدَى دويٍّ تردَّدَ في أرجاء المسبح، مَبْعَثُهُ خطواتُ أحَدٍ يركضُ، يمُرُّ قريباً منهما.

يتسارَعُ لهاثُ فانسون ويتضاعف. يصدرُ عنه نخيرٌ وصراخ، أمّا جولي فتُرسِلُ تأوُّهاً وزفيراً مُتقطِّعيْن، لأنّ جَسدَ فانسون المُبلّل الذي يجثمُ باستمرار فوقها يُضايقها، فيما هي تودُّ بذلك التقطّع أنْ ترُدَّ على زمجرةِ فانسون.

36

لمْ ينتبه لهُما العالِم التشيكي إلا في اللحظة الأخيرة، لذلك لمْ يتمكّن من تجنُّبهما. إلا أنّه يحرصُ على تجاهلهما، يجهد في تثبيت نظره بعيداً عنهما. يُربكهُ ما يراه، لأنّه لمْ يَخبر الحياةَ في الغرب جيّداً. من المُستحيل، في الإمبراطورية الشيوعية، حدوثُ مُضاجعةٍ قربَ مسبحٍ عمومي، وهو ما ينطبقُ على أمورٍ أخرى كثيرة، عليه الآن أنْ يتكيّفَ معها بصبر. يبلغُ الجانبَ الآخر من

Twitter: @ketab_n

المسبح، فتحذوهُ، مع ذلك، الرغبة في أنْ يعودَ لِيُلقي نظرةً سريعة عليهما في وضْع المُضاجعة، لأنّ ثمّة سؤالاً يُحيِّرُه، هو: هل يملكُ الرجُلُ الذي يُضاجعُ المرأةَ جسداً رياضياً؟ ما المُجْدي في الثقافة الجسدية؛ مُمارسة الجنس أم الأعمال المُقوّية للعَضلات؟ لكنّه يتمالكُ نفسه لئلا يتحوّلَ إلى مُتلصِّص.

يتوقفُ عند الحافّة المُقابلة ويشرعُ في تداريبه الرياضية، يركضُ أوّلاً في مكانه رافعاً رُكبتيْه إلى الأعلى، ثمّ يرتكزُ على يديْه ويرفعُ قدميْه في الهواء. منذ طفولته وهو يُجيدُ التحكّم في هذا الوضْع الذي يُسمِّيه الرياضيون الجسد المقلوب ممدوداً، يُنجزه اليوم بإتقان أكثر، فيخطرُ له السؤال الآتي: كمْ مِنْ عُلماء فرنسا الكبار يُجيدُ إنجازَهُ مثله؟ كمْ، أيضاً، من وزير؟ يتخيّلُ الوزراءَ الفرنسيين الذين يعرفُ أسماءَهم وصورَهُم، واحداً واحداً، يُحاولُ استحضارَهُم في هذا الوضْع، مُعتمدين على أيديهم لتحقيق توازُنِ أجسادهم، ما يراهُم عليه يُشعِرُهُ بالرّضى، يراهُم بلا مهارةٍ ولا طاقةٍ بدنية. بعد أنْ نجحَ في إنجاز وضْع الجسد الممدود مقلوباً سبْعَ مرّات، يتمدَّدُ على بطنه، يستندُ إلى ذراعيْه ويشرع في حركةِ الصعود والنزول.

37

لا يهتمُّ فانسون وجولي بما يَجْري حولهما. هُما ليسا استعراضييْن؛ لا يبحثان عن حافزٍ تُولّدهُ نظرةُ الآخَر، ولا عن

Twitter: @ketab_n

ضبطها ومُراقبة مَن يُتابعُهُما. ما يقومان به ليس انتشاءً بمُضاجعة، إنّما هو مشهدٌ مسرحي، والممثلون، كما هو معلوم، يتجنَّبون عيونَ المُتفرّجين أثناء التشخيص. جولي تحرصُ أكثر من فانسون على ألا تَرى شيئاً، بيْد أنّ النظرةَ التي حطّت على وجْهها كانت أثقلَ من ألا تُحِسَّ بها.

ترفعُ بصرَها إلى مصدر النظرة، نحو المرأة ذاتِ الفستان الأبيض تتمعّنُ بثبات. نظرتُها غريبة وساهية، إلا أنّها ثقيلة على نحوٍ مُرعب، ثقيلة مثل اليأس والحيرة، بضغط ذلك الثقل تُحسُّ جولي كما لو أصابها شللٌ. حركاتُها تتثاقلُ، تضمُرُ وتتوقّف، لمْ يعُد هناك غير تأوّهاتٍ قليلة تتواصلُ قبل أن يعقبَها الصمت.

المرأةُ في فستانها الأبيض تقاومُ رغبة جامحة في الصراخ، لا تقوَى على التحرّر من هذه الرغبة التي لا يُضاهيها إلا الصراخ في وجْه مَنْ لن يسمعَها. فجأة تفقدُ التحكّم في نفسها وتُطلقُ صرخة حادّةً مُرعبة.

تستفيقُ جولي من خَدَرها، تنهضُ وتلتقط سروالها الداخلي، ترتديه وترتدي ملابسَها المشتّتة بعَجل، ثمّ تُسْلمُ ساقيْها للريح.

بسرعةٍ أقلّ، يلتقطُ فانسون قميصَهُ وسرواله، لكنّه لا يتبيّنُ بتاتاً سرواله الداخلي.

على بُعدِ خطواتٍ قليلة، يَمْثلُ رجُلٌ بمنامته، لا أحدَ يراه ولا هو يرَى أحداً أيضاً، كلُّ اهتمامه مُنكبٌّ على المرأةِ ذات الفستان الأبيض..

Twitter: @ketab_n

38

عندما لمْ تقوَ على الاستسلام لفكرةِ أنّ بيرك تخلّى عنها، تملّكتها تلك الرغبة المجنونة في استفزازه بأنْ تستعْرضَ كاملَ جمالها الأبيض أمامه (أليس جمالُ امرأة اشتُقَّ اسمُها من الطُّهر طاهراً؟)، لكنّ جَولتها في أروقة وأبْهاءِ الفندق كانت مُخيِّبة، لأنّها لمْ تجِدْ بيرك في طريقها، كما أنّ المُصورَ لمْ يتبعْها صامتاً مثل كلبٍ هجين حقير، بل خاطبَها بصوتٍ قويّ مُنفّر. لقد نجحت في إثارةِ الاهتمام بها، لكنّه اهتمامٌ سيّءٌ وساخر، حتى أنّها سارعت الخُطى التي أفْضت بها إلى ضاحيةِ المسبح، حيث اصطدمت بشابٍّ وفتاةٍ في لحظة مُضاجعة، وانتهت بإطلاق صرْخَتها.

أيْقظَتْها تلكَ الصّرخة لِترى فجأة، بكلِّ وضوح، الكمين الذي يُطوِّقها؛ مُطارِدٌ خلفها والماءُ أمامها. فتبدّى لها بجلاءٍ أنْ لا خلاصَ في ذلك التطويق، الخلاصُ الوحيد الصائب الذي بقيَ أمامها هو أنْ تُقْبلَ على عمَلٍ مجنون، لذلك اختارت بكامل إرادتها منحى اللامعقول، تقدَّمت خُطوتيْن وألقتْ بنفسها في الماء.

الطريقة التي بها قفزتْ كانت غريبة للغاية. هي، خلافاً لجولي، تُجيدُ الغطس، لكنّها سقطت في الماء، مُقدّمة قدَميْها فذراعيْها وقد باعدَتْ بينهُما على نحو مَعيب.

كلُّ الحركات تمتلكُ، إلى جانبِ وظائفها العمَلية، دلالة

Twitter: @ketab_n

تتجاوزُ مقصَدَ مَنْ تصدُرُ عنهم. عندما يغطسُ أحدٌ بسروالِ السباحة، فإنّ هذه الحركة تنطوي على الفرح رغم التعاسة المُحتمَلة للغطّاسين، وعندما يقفزُ أحدٌ مُرتدياً ثيابه، فإنّ ذلك يعني شيئاً آخر. لا يقفزُ بكلِّ ثيابه في الماء إلا مَن يرومُ الغرق، ومَن يرومُ الغرَق لا يغطسُ مُقدِّماً رأسَه، يرتمي كما اتّفق، هو ذا ما تُقرُّهُ لغة الحركات السحيقة. لذلك لمْ تقوَ إيمّاكولاطا، وإنْ كانت سبّاحة ماهرة، أن تقفزَ وهي ترتدي فستانها الجميل إلا بطريقة رديئة.

هي الآن، من غير سببٍ معقول في قلب الماء. تشعُرُ وهي تنقادُ لِحركتها التي تمْلأ تدريجياً روحَها، أنّها تحيا انتحارَها وغرَقها. كلُّ ما سوفَ تُقبلُ عليه من الآن، لن يكون إلا رقصة باليه، تمثيلية إيمائية، بها سوف تُمدِّدُ حركتُها التراجيدية خطابَها الأخرس:

بعد سقطتها في الماء، تنهضُ واقفة، المسبح بمكان السقطة قليلُ العُمق، يبلغُ فيه الماء حدّ خصرها. تظلُّ لبرهةٍ واقفة، مُستقيمة الرأس والنصفُ الأعلى من جسدها مُنتفخ. ثمّ تغوصُ من جديد. في تلك اللحظة ينفصلُ وشاحٌ مِن فستانها، يطفو خلفها كما تطفو الذكرياتُ خلفَ الأموات. تنهضُ من جديد، مائلة برأسها قليلاً إلى الخلف، مُوسِّعة بين ذراعيْها كما لو كانت تريدُ أن تركض، تتقدَّمُ بضعَ خطوات في ذلك المكان، حيث يأخذ المسبح في الانحدار، ثمّ تغوصُ من جديد. على هذه الصورة تتقدّمُ، شبيهة بحيوانٍ مائي، مثل إوزَّةٍ أسطورية تدَعُ

Twitter: @ketab_n

رأسَها يختفي تحت السطح وترفعه من جديد صوبَ السماء. حركاتٌ تُغنّي رغبة الحياة في الأعالي أو الغرق في أعماق الماء.

أمّا الرجُل ذو المنامة فيجثو فجأة باكياً: «عودي، عودي، مُجرمٌ أنا، مُجرمٌ أنا، عودي!»

39

في الجهة الأخرى من المسبح، المُحاذية للناحية العميقة منه، يُجري العالِمُ التشيكي تداريبَه الرياضية وينظر مُندهشاً، فقد خطرَ بباله أوّلاً أنّ الوافديْن الجديديْن التحقا لينضمّا إلى مسرح المُضاجعة بين الشابّ والفتاة، وأنّه سوف يُعاينُ واحدةً من تلك المُضاجعات الجماعية الخُرافية التي كان يسمعُ كثيراً عنها لمّا كانَ في صقالات البناء بالإمبراطورية الشيوعية المُتزمّتة. فكّر أيضاً بدافع الحِشمة أنّ عليه في مثل هذه الحالات، أي انطلاق مُضاجعة جماعية، أن يُغادرَ المكان ويلتحق بغرفته. آنذاك دوَّت، وهو يُنجز حركتَه الرياضية معتمداً على ذراعيْه مُستقيمتيْن، الصرخة المُرعبة في أذنه، فبقيَ مُتجمّداً كما لو تحجّر، غيرَ قادر على مُواصلة تمارينه، وإنْ لمْ ينهض بجسده إلا ثماني عشرة مرّة. هكذا عاينَ سقوطَ المرأة ذات الفستان الأبيض في الماء والوشاحَ الذي طفا خلفها، وإلى جانبه بضع أزهار اصطناعية، زرقاء ووردية.

ينتهي العالِمُ التشيكي، وهو جامدٌ في وضْعه الرياضي، إلى

Twitter: @ketab_n

إدراك أنّ المرأة تتعمّدُ إغراقَ نفسها، تجهدُ في الاحتفاظ برأسها تحت الماء، لكنّ إرادتها ليست قوية بما يكفي، إذ تنهضُ باستمرار. إنّه يُعاينُ انتحاراً لمْ يسبقْ له قط أنْ عرَفَ كيف يتخيّله. ربّما تُعاني تلك المرأة من مرض أو صدمة أو مُطارَدة، تنهضُ من جديد وتختفي تحت الماء، مرّاتٍ مُتتالية، من المؤكّد، يتراءَى له، أنّها لا تُجيدُ السباحة. كلّما تقدّمت غطّى الماءُ أكثر فأكثر قامَتَها، سوف يُغطّيها بالكامل في ما بعد، سوف تقضي تحت النظر المُستسلم للرّجُل ذي المنامة الذي يُراقبُها من حافّة المسبح جاثياً وهو يبكي.

لمْ يعُد العالِم التشيكي يحتملُ التردّد. لذلك ينهضُ مُتأهّباً للغطس، ينحني إلى الأمام من غير أنْ يتخلّص من جوربيْه، يطوي ساقيْه ويمدُّ ذراعيْه إلى الخلف.

يكفُّ الرجُل ذو المنامة عن النظر إلى المرأة بعْدَ أنْ سحرَهُ رجُلٌ مجهول، تفتقرُ قامته الضخمة القوية للاتّساق على نحو غريب، وهو يتأهّب أمامه، على بُعد خمسة عشر متراً، للمُشاركة في مسرحيةٍ لا تعْنيه، مسرحية يصونها الرجُلُ ذو المنامة بغيرة، لأجْله وأجْل المرأة التي يُحبّ. هو حقّاً يُحبّها، ومن يستطيع إنكارَ ذلك. أمّا كرْهُه فعابرٌ. إنّه عاجزٌ فعلاً عن كرْهها بصورةٍ دائمة، وإنْ كانت تُؤلِمُه. يعلمُ أنّها تتصرّفُ تحت ضغط حساسيتِها المجنونة الجموحة الخارقة التي لا يفهمها، لكنّه يُقدِّرها. يَظلُّ، وإنْ أغرَقها شتائمَ، مُقتنعاً في قرارةِ نفسه ببراءَتِها، أحَدٌ غيرُها هو المسؤول عن خِلافهما. يجهلُ مَنْ

Twitter: @ketab_n

يكون، يجهلُ أين يوجد، لكنّه مُستعدٌّ أنْ ينقضَّ عليه. بينما هو في تلك الحالة النفسية، يرمُقُ الرجُلَ الذي ينحني بطريقة رياضية كي يغطس، ينظرُ بذهولٍ إلى جسدِهِ القويّ المفتول العَضلات، المُفتقِر للتناسق على نحو غريب، فخذاه مُنتفختان مثل فخذيْ امرأة، ورَبْلتا ساقيْه بارزتان بنشاز، جسَدٌ عبثي شبيهٌ بحَيفٍ مُجسّد. يجهلُ كلَّ شيءٍ عن ذلك الرجُل، لا يتّهِمه بشيء، لكن، بَعْد أنْ أعْماه الألم، يرَى في ذلك الصَّرح من القُبح صورةَ تعاسته الغامضة، ويشعرُ بكُرهٍ جارفٍ تجاهه.

يغطسُ العالِمُ التشيكي، وبَعْد حركاتٍ قوية سريعة يدنو من المرأة.

«دَعْها!» يصرخُ الرجُل ذو المنامة، ويغطس هو أيضاً.

لمْ يعُد يفصِلُ العالِم التشيكي عن المرأة إلا متريْن، وقد لامست قدَماهُ القرار.

يَسبحُ الرجُل ذو المنامة صوبَه، ويصرخ من جديد: «دَعْها! لا تلمسها!»

مدَّ العالِمُ التشيكي ذراعيْه تحت جَسَد المرأة التي تسترْخي في تنهيدةٍ طويلة.

في تلك اللحظة، يُصبحُ الرجُلُ ذو المنامة على مقربةٍ منه، يصيح من جديد: «دَعْها وإلا قتلتُك!»

لا يَرَى، عبْر الدموع التي تُغطّي عينيْه، إلا ظِلاً عديمَ الاتّساق. يُمسكه من كتفه ويرُجُّه بقوّة. يترنّحُ العالِمُ التشيكي، تسقطُ من بيْن ذراعيْه. لا أحدَ منهما بَعْد ذلك يهتمُّ بالمرأة التي

Twitter: @ketab_n

تسبَحُ صوبَ السُّلّم وتخرجُ من الماء. ينظرُ العالِم التشيكي إلى الكُرْه المُتطاير من عينيْ الرجُل ذي المنامة، تشتعلُ عيناهُ هو أيضاً بالكُره نفسه.

يفقِد الرجُلُ ذو المنامة أعصابَهُ فيُوجِّه لكمة إلى العالِم التشيكي.

يشعرُ العالِمُ بالألم في فمِه. يتحسَّسُ بلسانه سِنّاً أمامية، ينتبهُ أنّها تتخلخلُ، هي سِنٌّ اصطناعية أحْكمَ تثبيتَها طبيبُ أسنانٍ من البارغواي وأحاطها بأسنانٍ اصطناعية أخرى. وقد شرَحَ له بإلحاح ساعتَها أنّ تلك السّن سوف تُشكّلُ دِعامة كلِّ الأسنان الأخرى، فإنْ هو يوماً فقدَها، لا مهرَبَ له مِن تثبيت طاقم أسنان، الذي يُثيرُ لدى العالِم التشيكي رُعباً لا يوصَف. لسانُه يفحَصُ السّن التي تتخلخل، يصفرُّ لونُه في البدء من جرّاءِ الخوف، ثمّ من الغضب في ما بعد. كلُّ حياته تطفو أمامه، تفيضُ عيناه للمرّة الثانية بالدّمع هذا اليوم. أجَل، ينسابُ دمعُه، من داخله تعِنّ له فكرةُ أنّه فقدَ كلَّ شيء، لمْ يعُد يملكُ سوى عضلاتِه، لكن، فيمَ تُفيدُهُ هذه العَضلاتُ البئيسة؟ يبعثُ هذا السؤالُ في ذراعِهِ اليُمْنى طاقة مُرعبة تترتّبُ عنها لطمة هائلة، شبيهة بالحُزن الذي يُسبِّبُه طاقمُ أسنان، شبيهة بنصف قرنٍ من المُضاجَعات الجماعية الساخنة على جنباتِ المسابح الفرنسية. بَعْد اللطمة، اختفى الرّجلُ ذو المنامة تحتَ الماء.

كان انهيارُهُ سريعاً وكاملاً، حتى اعتقدَ العالِمُ التشيكي أنّه قتله. بَعْد بُرهةِ ذهول، ينحني ويرفعُه، يضربه ضرباتٍ خفيفة

Twitter: @ketab_n

على وجهه، يفتحُ الرجلُ عينيْه، نظرتُه الساهية تحطُّ على التجلّي عديم الاتّساق، يتخلّصُ من العالِم ويسبحُ صوب السلّم كي يلتحقَ بالمرأة.

40

على حافّة المسبح جلست المرأة القرفصاء، تابعتْ باهتمام بالغ الرجُل ذا المنامة، تابعتْ مُقاومَته وانهيارَه. ما إنْ تطأ قدَماه حافّة المسبح المُبلّطة حتى تنهض وتتوجّه إلى درَج السُّلم من غير أنْ تلتفت، إلا أنّها تسيرُ بتأنٍّ واضح كي يتمكّن من السّيْر خلفها. بهذه الصورة، من غير أنْ ينبسَا بكلمة واحدة، مُبلّليْن بروعة يخترقان البهْو (الخالي منذ مدّة غير يسيرة)، يتوجّهان إلى الأروقة، منها يبلغان الغرفة. ملابسُهما تقطرُ وهما يرتجفان من البرد، عليهما أنْ يُغيّرا ملابسَهما.

وماذا بَعْد؟

بَعْد؟ سوف يُمارسان الجنس، ماذا تبادَرَ لكم غيره؟ سوفَ يلزمان الصمت تلك الليلة، تكتفي هي بالتأوُّه مثل مَنْ تعرَّض للأذى. كلُّ شيءٍ سوفَ يستمرّ على هذا النحو، المسرحية التي قدَّما هذا المساء سوف تتكرَّرُ في الأيام والأسابيع المُقبلة، كي تُبرهنَ أنّها فوق كلُّ ابتذال، فوق العالَم الاعتيادي الذي تزدريه، سوفَ تدفعُ الرجلَ ذا المنامة لِيَمْثلَ أمامَها، يتّهمُها ويُجهشُ في البكاء، تُصبحُ هي قاسية أكثر، فتخونُه وتتباهَى بخيانتها له،

Twitter: @ketab_n

تجعله يتألّم، ثمّ يتمرَّدُ عليها، يُطلِقُ كلاماً بذيئاً، مُهدِّداً ومُقرّراً الإتيان بشيءٍ شنيع، يُكسِّرُ مزهرية، يصرُخُ بشتائم مُرعبة، تتظاهَرُ هي بالخوف، تتّهمُهُ بالاغتصاب والعُنف، بعد ذلك يجثو باكياً من جديد، مُعترفاً بما اقترفه، ثمّ تسمحُ له بمُضاجَعتها، هكذا سوف تتكرَّرُ المسرحية أسابيعَ وشهوراً وسنواتٍ إلى ما لا نهاية.

41

وماذا عن العالِم التشيكي؟ لسانُه يُثبِّتُ السّنَّ المُتخلخلة، قائلاً في سرّه: هذا كلُّ ما يتبقّى من حياتي، سِنٌّ تتخلخلُ وهَلعي مِن أنْ أضطرّ إلى وضْع طاقم أسنان. ألا شيءَ آخر؟ لا شيءَ بالمرّة؟ لا شيء. كلُّ ماضيه يتبدّى أمامَه، في ومضةٍ مُباغتة، لا مِثل مُغامرةٍ رفيعة، غنية بالأحداث الدرامية المُتفرّدة، بل مِثل جزءٍ ضئيل للغاية من رُكامِ أحداثٍ مُلتبسة، اخترقتِ الكونَ بسرعةٍ فائقةٍ تمنع تبيُّن ملامح تلك الأحداث، إلى حدّ أنّ بيرك كان ربّما صائباً لمّا عدَّهُ مِن هنغاريا أو بولونيا، إذ يُمْكنهُ حقّاً أنْ يكونَ هنغارياً، أو بولونياً، أو ربّما تركياً، أو روسياً، أو حتّى طفلاً يحتضرُ في الصومال. عندما تمرُّ الأشياء بسرعةٍ فائقة، لا أحَدَ يُمْكنه أنْ يكونَ واثقاً من شيءٍ ما، من أيّ شيء، حتّى مِن ذاته نفسِها.

لمّا استحضرتُ ليلة السيدة ت. ذكّرتُ بالمُعادلة الشهيرة في واحدٍ من الفصول الأولى لِموجَز الرياضيات الوجودية، هي أنّ

Twitter: @ketab_n

درجة السُّرعة مُتناسبة مع حدّةِ النسيان. عن هذه المُعادلة، يُمْكنُ أنْ نستشفّ نتائجَ متنوّعة، منها مثلاً أنّ عصرَنا فتنهُ شيطانُ السرعة، لهذا السبب ينسى ذاته بسهولة. الواقع أنّي أفضّلُ قلبَ هذا الإثبات لأقول إنّ عصرنا مهووسٌ برغبةِ النسيان، وإرضاءً لهذه الرغبة يفتنه شيطانُ السرعة، يحُثّ عصرُنا الخُطى، لأنّه يرومُ إفهامَنا أنّه يتمنّى ألا نتذكّره، يشعُرُ بملل تجاهَ ذاته، باشمئزاز مِن نفسه، يُريدُ إطفاءَ شعلة الذاكرة الصغيرةِ المُتراقصة.

مُواطِني العزيز، رفيقي، مُكتشف موسكا براجونيسيس الشهير، عاملَ صقالات البناء البطل، لا أريدُ قطعاً أنْ أتألّم لِرؤيتك قابعاً وَسَط الماء! سوف تُصابُ بالبرد! صديقي! يا أخي! لا تقْسُ على نفسك، اخرجْ، اذهبْ لتنام. ابتهِجْ بكونك منسياً. تدثّر بالخمار الليِّن للنسيان التّامّ. لا تُفكّر أبداً في الضحك الذي جرَحَ شعورَك، ما عاد له وجود، لقد زالَ تماماً، مثلما زالت السنوات التي قضيتَها بصقالات البناء، ومثلما زالَ مَجْدُ الاضطهاد الذي عِشتَه. القصرُ هادئٌ، افتح النافذة، سوفَ يملأ أريجُ الشجَر غرفتك. استنشقه، إنه شجرُ الكستناء، عُمْرُه ثلاثة قرون. حفيفه هو ذاتُه الذي سمعتْه السيدة ت. وفارسُها لمّا جمعتهما المُضاجعة بالجناح الذي كان مُمْكناً حينها رؤيته من نافذتك. للأسف لنْ تراهُ أبداً، لأنّه هُدّم خمس عشرة سنة في ما بعد، خلال ثورة 1789، لمْ يبقَ منه إلا بضع صفحاتٍ في قصّةِ فيفان دونون التي لمْ يسبق لك أنْ قرأتْها، ومن المُحتمَل جدّاً ألا تقرأها أبداً.

Twitter: @ketab_n

42

لم يعثر فانسون على سرواله الداخلي، فارتدى سرواله وقميصَه فوق جسده المُبلّل وأخذ يركضُ خلفَ جولي، مُلاحظاً، وهو يجوبُ الأروقة، أنّها اختفت. يعرفُ، مادام يجهلُ غرفتها، أنّ حظوظه في العثور عليها ضئيلة، مع ذلك يُواصلُ بحثه ضائعاً بين الأروقة، مُتمنياً أن يَنفتح بابٌ ويُبادرَهُ صوتُ جولي: «تعالَ فانسون، تعال». لكن الجميع خالدٌ إلى النوم، لا صوتَ يُسمع، الأبوابُ كلُّها تظلُّ مُغلقة. يهمسُ «جولي، جولي!»، يرفع من همسه، يصرخُ هامساً، غير أنّ الصمتَ وحدَهُ يُجيبه. يتخيّلها. يتخيّلُ وجهَها وقد حوّله البدرُ شفّافاً. يتخيّلُ فُتحة مؤخّرتِها. آه، فُتحة مؤخّرتها التي كانت مكشوفة بالقرب منه وأضاعها، أضاعها تماماً. لمْ يلمسها ولمْ يَرَها، آه، تُعاودُ هذه الصورةُ المُرعبة الظهورَ من جديد، يستيقظ قضيبُهُ المسكين، ينتصبُ، بصورةٍ غريبة، ضخماً بلا جدوى.

يلِجُ غرفتَه، يتهاوَى فوق مقعدٍ، لا شيء يدورُ في رأسه سوى اشتهائه لجولي. هو مُستعدٌّ للقيام بكلّ شيء كي يَعثرَ عليها، لكن لا شيءَ يُمْكنُ فعله. سوف تأتي غداً صباحاً إلى مطعم الفندق كي تتناولَ وجبة الإفطار، سيكونُ هو، للأسف، قد وصَلَ إلى مكتبه بباريس. يجهلُ عنوانَها واسمَها ومكانَ عمَلها، يجهلُ كلَّ شيءٍ عنها. وحيدٌ هو رفقة يأسِهِ الكبير المُجسَّد حِسّياً في الكِبَر الغريب لقضيبه.

Twitter: @ketab_n

كان قضيبه، قبْل أقلّ من ساعة، يُبْدي اتّزاناً خليقاً بالثناء، مُدركاً كيفَ يُحافظ على حجمٍ مُناسب، علَّله، في حديث لافت، بأدلّة أقنعَتْنا جميعاً بصوابها، لكنّني الآن مُرتابٌ في دواعي هذا القضيب الذي هذه المرّة فقدَ، من غير دليلٍ مُقنع، كلَّ اتّزان. إنّه ينتصبُ ضدَّ العالَم مثل سمفونية بيتهوفن التاسعة التي تصدحُ، في مُواجَهَةِ حُزن البشرية، بنشيد الفرح.

43

للمرّة الثانية تستيقظ فيرا من النوم.

«ما الذي يُجبرُكَ على رَفع صوت المذياع إلى هذا الحدّ؟ لقد أيْقظتني.

– أنا لا أسمعُ المذياع. ثمّ إنَّ الصمت يعُمّ الغرفة كما لا يعُمُّ في أيّ مكان بالخارج.

– لا، أنتَ استمعتَ للمذياع، وهذا تصرّفٌ فظّ، لقد كنتُ نائمة.

– أقسِمُ لك!

– فضلاً عن ذلك، نشيدُ الفرح الأبله هذا، كيف تُطيقُ سماعَه!

– معذرة، لا بدّ أنّ الخطأ مرّةً أخرى ناجمٌ عن خيالي.

– كيف، خيالك؟ ربّما أنت مَن كتبَ السمفونية التاسعة؟ أبَدَأتَ تعتقدُ أنّك بيتهوفن؟

Twitter: @ketab_n

– لا، ليس ذلك ما كنتُ أنوي قوله.

– لمْ يسبق أن بدَت لي السمفونية التاسعة بمثل تلك الصورة كما هي الحال الآن. إنّها لا تُطاق، ناشزةٌ مُزعجة مُبالغٌ فيها وتافهة، لمْ أعُد أحتملُ سماعَها. هذا حقّاً لا يُطاق. ثمّ إنّ هذا القصرَ مسكون، لا أريد أن أمكثَ به دقيقة واحدة أخرى. رجاءً، لِنُغادر المكان، وفضلاً عن ذلك فقد طلعَ الفجر».

ثمّ تُغادرُ السرير.

44

بُعَيْد طلوع الفجر، أفكّرُ في المشهد الأخير من قصّة فيفان دونون. لقد انتهت ليلة الحبّ في مقصورة القصر السّرّية بمجيء الوصيفة كاتمةِ السّرّ التي أبْلغت العشيقيْن بطلوع الفجر. يرتدي الفارسُ ملابسَه بعَجل ويخرج، لكنّه يتيهُ في أروقة القصر، ومخافة أنْ ينكشف أمْرُه، يُفضّلُ الذهابَ إلى الحديقة مُتظاهراً بالتنزُّه مثل شخص استيقظ باكراً بَعْد أنْ نامَ جيّداً. يحاولُ، والدوار مازالَ يُثقلُ رأسَه، أنْ يفهَمَ مغزى مُغامَرته، مُتسائلاً في سرِّه: هل انفصلت السيدة ت. عن عشيقها الماركيز؟ أهي مُقبلة على الانفصال عنه؟ أتُريدُ فقط الانتقام منه؟ ما تتِمّة الليلة التي انتهت للتّو؟

تائهاً في تساؤلاته، يرمُقُ فجأة الماركيز، عشيق السيدة

Twitter: @ketab_n

ت.، أمامه وقد حلَّ للتوّ بالقصر، يحُثّ الماركيز الخُطى نحو الفارس ويسأله بلهفة: «كيف جَرَت الأمور؟»

الحديثُ الذي يدور في ما بَعْد يُطْلِع الفارسَ في الأخير على الدور الذي أنيط به. لقد كان ضرورياً تمويه الزوج بتوجيه اهتمامه إلى عشيقٍ مُنتَحَل، وهو ما تكفّلَ الفارسُ بأدائه. لمْ يكن دوراً رفيعاً، بل مُضحكاً، يعترفُ الماركيز ضاحكاً. ثمّ يُفضي للفارس، كما لو كانَ يريدُ مُكافأته على تضحيته، ببعض الأسرار، يقولُ له إنّ السيدة ت. امرأةٌ محبوبة، وفاؤها بوجهٍ خاصّ لا مثيلَ له. نقصُها الوحيد هو بُرودُها الجنسي.

يعودان معاً إلى القصر لِتحية الزوج الذي يتحدّثُ إلى الماركيز بحفاوة، في حين يتصرَّف مع الفارس باستخفافٍ بيِّن، ويحُثُّه على مُغادرَةِ القصر في أقرب وقت، إذّاك يقترحُ عليه الماركيز مقعَدَهُ في العرَبة التي أقلّتْه من باريس.

بَعْد ذلك، يذهبُ الماركيز والفارس في نهاية الحديث لزيارةِ السيدة ت. التي تنجحُ في أنْ تُسِرّ للفارس على عتبة الباب بكلمات دافئة لمّا همَّ بالمُغادرة. هي ذي الكلمات الأخيرة كما وَرَدت في القصّة: «في هذه اللحظة، يُذكّرُكَ حُبُّك، مَنْ كانت موضوعَه خليقة بذلك [...] وداعاً مرّةً أخرى. أنتَ ساحر... لا تؤلّب الكونتيسة عليّ».

«لا تُؤلِّب الكونتيسة عليّ»، هي ذي الكلمات الأخيرة التي تقولها السيدة ت. لعشيقها.

مُباشرةً بعد تلك الكلمات، تنتهي القصّة بقول الفارس:

Twitter: @ketab_n

«أركبُ العربة التي كانت في انتظاري، أبحَثُ عن أبعادِ كلِّ هذه المُغامرة، فلا أتبيّنُ شيئاً».

مع ذلك، تنطوي القصّة على أبعادٍ تُجسِّدها السيدة ت.، لقد كذبت على زوجها، وكذبت على عشيقها الماركيز، وكذبت على الفارس الشابّ. إنّها تلميذةُ أبيقور الحقيقية، الصديقة المُقرَّبة من اللذة، حاميتُها بكذبٍ هادئ، حارسة السعادة.

45

الحكاية في القصّة يرويها الفارسُ بضمير المُتكلّم. هو يجهلُ تماماً ما تُفكّرُ فيه حقّاً السيدة ت. كما أنّه مُتكتّمٌ عندما يتحدّثُ عن أحاسيسه الخاصّة وعن أفكاره. هكذا يظلُّ العالَمُ الداخلي لهاتيْن الشخصيتيْن محجوباً أو شِبْه محجوب.

لمّا تحدَّثَ الماركيز، عند الفجر، عن البرود الجنسي لعشيقته، تسنّى للفارس أن يضحكَ في سرِّه، لأنّها للتوّ أثبتت له العكس. لكن، ما عدا هذا اليقين، لمْ يكن يملكُ غيرَه. لا يدري إنْ كانَ ما عاشته السيدة ت. معه جزءاً من المُعتاد عندها، أمْ مَثّلَ لها مُغامرةً نادرة، بل فريدة تماماً؟ هل اهتزَّ قلبُها أمْ ظلَّ بمنأى عن أيِّ تأثير؟ هل ولّدت ليلة الحُبّ غيرَتَها تجاه الكونتيسة؟ أكانت الكلماتُ التي بها أوْصَتِ الفارسَ صادقة أمْ أمْلاها واجبُ الاحتياط وحسب؟ أسيُوَلِّد غيابُ الفارس حنيناً لديها أمْ سوف يُبقيها غير مُكترثة؟

Twitter: @ketab_n

أمّا في ما يخصُّه هو، فقد أجابَ، لمّا هَزئ منه الماركيز عند الفجر، بنباهة، لتمكّنه من الحفاظ على هدوئه. لكن بمَ شعرَ حقّاً؟ ما الإحساس الذي ينتابُهُ في اللحظة التي سيُغادرُ فيها القصر؟ فيمَ سيُفكّر؟ في المُتعة التي تحصّلت له، أمْ في المَقلب الساخر الذي انْطَلى عليه؟ أسوفَ يُحسُّ بالظفر أمْ بالخيبة؟ سعيداً أمْ تعيساً؟

بعبارةٍ أخرى، أيُمْكنُ للمرء أنْ يُحصِّلَ المُتعة، أنْ يحيا من أجلها ويكون سعيداً؟ هل المَثلُ الأعلى لمذهب اللذة قابلٌ للتحقّق؟ أهذا الأمَلُ مُمكن؟ أيوجد على الأقل قبَسٌ واهٍ لهذا الأمَل؟

46

مُنهَكاً تماماً، تحذو فانسون رغبة أنْ يتمدّد على السرير وينام، لكنّه يعدلُ عن ذلك مخافة أنْ يفوتَه الوقت. عليه أنْ يُغادرَ في غضون ساعة، لا بَعْدَها. جالساً فوق مقعَدِه، يعتمِرُ خوذةً مُفترضاً أنّ ثِقلها سوف يمنعُهُ من أنْ يغفو. لكن أنْ يجلِسَ بخوذةٍ على رأسه من غير أنْ يَقوى على النوم أمْرٌ لا معنى له. لذلك ينهضُ مُقرِّراً أنْ يُغادرَ القصر.

وُشوكُ لحظة الرحيل يُذكّرُهُ ببونتوفان. آه بونتوفان! سوفَ يسأله عمّا حدثَ. فما الذي عليه أن يحكيه له؟ إنْ هو أخبَرهُ بكلِّ ما وقع، لا شك سيُثيرُ ضحِكه وضحِك الجميع. إنّه أمْرٌ

Twitter: @ketab_n

مُضحك أنْ يلعبَ الساردُ دوراً هزلياً في حكايته الشخصية. لا أحدَ، فضلاً عن ذلك، يُجيدُ هذا الدّورَ أحسن من بونتوفان. يتبدّى ذلك مثلاً عندما يحكي تجربته مع الرّاقنة التي سَحَبَها من شعَرها لأنّها التبست لديه مع أخرى. لكن حذار مِنْ مَكْر بونتوفان! لأنّ الجميعَ يفترضُ أنّ حَكْيَه الهزلي يُخفي حقيقة مُخادِعة، فيحسدونه على عشيقته التي تُطالبُهُ بأنْ يكونَ فظّاً. وبغيرةٍ حارقة، يتخيّلون راقنة حسناء، الله وحده يعلمُ ما يفعله بونتوفان معها. أمّا إنْ رَوى فانسون قصّة المُضاجعة الوهمية فسيُصدّقهُ الجميع ويسخرون منه ومن خيبته.

يذرَع غرفته مرّاتٍ عديدة، مُحاولاً أنْ يُعدِّلَ قليلاً قصّتَه، أنْ يُعيدَ صوغها من جديد ويُضيفَ إليها بعضَ اللمَسات. أوّلُها أنْ يُحوّلَ التظاهُر بالمُضاجعة إلى مُضاجعةٍ حقيقية. يتخيّلُ مَنْ ينزلون إلى المسبح، وقد اندهشوا لعناقهما الحميم وافتُتنوا به، يَشرَعون هم أيضاً في نزْع ملابسهم بعَجل؛ مِنهم مَن ينظرُ إليهما ومنهم مَن يُقلِّدهما. وعندما يرَى فانسون وجولي مُضاجَعة جماعية رائعة حولهما ينهضان بحِسٍّ مسرحي رفيع، يُواصلان النظرَ لبضع ثوانٍ إلى ما انتشرَ في مُحيطهما، ثمّ يبتعدان مثل خالقيْن انتهيا توّاً مِن صُنع الكون، ويُغادران. يُغادران بالطريقة التي التقيا بها، كلٌّ مِن وجهة مُختلفة لئلا يلتقيا أبداً.

ما كادت الكلمات الأخيرة المُرعبة: «لئلا يلتقيا أبداً» تعبُرُ ذهنه حتّى انتصَبَ قضيبُه وتملّكتْه حالة هِيَاج، فنازعَتْهُ نفسُه إلى أنْ يصدِمَ رأسه مع الجدار.

Twitter: @ketab_n

الغريبُ أنّه لمّا كان يختلِقُ مشهَدَ المُضاجعة المُتعدّدة، كان هَيَجانه المشؤومُ يتوارَى، لكنْ عندما يستحضرُ جولي الحقيقية الغائبة يَهيجُ من جديدٍ حدَّ الجنون. لذلك يتشبّثُ بحكاية مشهد المُضاجعة المُتعدِّدة، يتخيّلها، يُعيدُ سرْدَها مرّاتٍ كثيرة بعد التعديل، أي بعد أنْ قرّت على الصورة الآتية: يُضاجعُ جولي، يصِلُ رجالٌ عديدون مع رفيقاتهم، ينظرُ الجميعُ إليهما، ينزعون ملابسهم، لا يعُمُّ مُحيطَ المسبح، في ما بعد، إلا تموّجاتُ مضاجعاتٍ عديدة. أخيراً، بعد ترديدٍ مُتكرّر مرّاتٍ عديدة لهذا الفيلم البورنوغرافي القصير، يشعُرُ بنفسه أحسن حالاً، يُصبحُ قضيبُه أكثر اتّزاناً، هادئاً تقريباً.

يتخيّلُ مقهى غاسكون وزملاءَهُ يُصغون إليه؛ بونتوفان، ماشو مُتباهياً بانتسامتِهِ الحمقاء الساخرة، غوجار مُبْدياً ملاحظاتِهِ التي تنمّ عن سَعَة معرفته، والآخرين. سوف يقول لهم في الختام: «أصدقائي، لقد ضاجعتُ من أجلكم، كلُّ أعضائكم الذكرية كانت حاضرةً في هذه المُضاجعة الجماعية الرائعة. لقد كنتُ وكيلَكم، سفيرَكم، نائبَكم في المُضاجَعَة، كنتُ ذَكَرَكُم الأجير، كنتُ ذَكَراً بصيغة الجمع!»

يذرَع الغرفة مُكرّراً العبارةَ الأخيرةَ بصوتٍ عالٍ مرّاتٍ عديدة. ذَكَرٌ بصيغة الجمع، ما أرْوَعَ هذا الاكتشاف! ثمّ (بعد أن اختفى تماماً هَيَجانه المُزعج) يحملُ حقيبته ويخرج.

Twitter: @ketab_n

47

تذهبُ فيرا إلى مكتب الاستقبال لأداء واجباتِ الفندق، بينما أنزلُ حاملاً حقيبة صغيرةً صوبَ سيارتنا المركونة في الساحة. ألقي نظرةَ حنينٍ من حولي، متأسّفاً على السمفونية التاسعة المُبتذلة التي منعت زوجتي من النوم وعجّلت بمُغادرتنا هذا الفضاء الذي كنتُ أشعُرُ فيه بالارتياح. هنا مدخل القصر، المكان الذي وقفَ فيه الزوج، بودٍّ وجفاءٍ في آن، لاستقبال زوجته والفارس الشابّ الذي يصحبُها، لمّا توقّفت بهما العرَبة عند الغروب. إنّه المكانُ ذاتُه الذي سيلجأ إليه الفارسُ بعد عشر ساعاتٍ تقريباً من وصولهما، وحيداً هذه المرّة، مِن غير رفيق.

لمّا أغلقت السيدة ت. بابَ الشقة بعد أنْ أسرَّت له بكلماتها الأخيرة، وصلتْه توّاً ضحكة الماركيز التي أعقبتْها ضحكة أخرى أنثوية. أمْهَلَ الخطو زهاءَ ثانية، متسائلاً في سرِّه: ما الذي يُضحِكهما؟ أيهزآن منه؟ وعندما لم يعُدْ يرغبُ سماعَ أيّ شيء، توجَّهَ بعجلٍ نحو مخرج القصر. مع ذلك، ظلَّ دوماً يسمعُ في أعماقه ذلك الضحك، عاجزاً عن التخلّص منه، والواقع أنّه لن يتخلّص منه أبداً. تحضُرُه عبارةُ الماركيز: «أنتَ لا تشعرُ كَمْ كان دورُكَ مُضحكاً؟». لمّا بادرَهُ، عند الفجر، بهذا السؤال الماكر لمْ يتذمّر، لأنّه كان يظنُّ أنّ السيدة تخونُ الماركيز، لذلك قالَ في سرِّهِ بابتهاج، إمّا أنّ السيدة ت. كانت تُهيّئ للانفصال عن الماركيزْ، ومن ثمّ سوف تُعاودُ بكلّ تأكيد الاتّصالَ به، وإمّا أنّها

Twitter: @ketab_n

كانت تُريدُ الانتقام مِن الماركيز، وفي هذه الحالة من المُحتمل أنْ يتكرّر لِقاؤها به (لأنّ مَنْ ينتقمُ اليوم سوفَ ينتقمُ أيضاً غداً). ذلك ما فكّرَ فيه بَعْد ساعةٍ من لقائه بالماركيز، لكن، بعد الكلمات الأخيرة للسيدة ت. كلُّ شيءٍ أصبح جليّاً؛ سوف تبقى الليلة من غير تتمّة، ليلة بلا غد.

يُغادرُ القصرَ باكراً يُطوّقه برودُ وحْدَتِه. لا شيءَ يبقى، يقول في سرِّه، من الليلة التي قضاها للتوّ غير ذلك الضحك. سوف تَرُوجُ هذه النكتة، ويُصبح شخصية مُضحكة. من المعلوم ألا امرأةً تتمنّى رجُلاً مُضحِكاً. فقدْ وَضَعا على رأسه، من غير أن يستأذِناه، قبّعة مُهرّج، وهو لا يشعُرُ أنّ له طاقة تحمُّلِها. يسمعُ في أعماقه نداءَ التمرّد يدعوهُ إلى روايةِ قصّته، روايتِها، بصوتٍ عالٍ للجميع، كما وقعت.

لكنّه يَعِي أنّه عاجزٌ عن ذلك. أنْ يصيرَ فظّاً أسوأ من أنْ يكونَ مُضحكاً. وفضلاً عن ذلك لا يُمْكنه أنْ يخذل السيدة ت. بإفشاء السرّ، ولنْ يخذلها.

48

مِنْ بابٍ آخَر أكثر سرّية يُفضي من الخلف إلى مكتب الاستقبال، يخرجُ فانسون إلى الساحة. لايزالُ يجهدُ نفسه في ترديد حكاية المُضاجعة الجماعية قربَ المسبح، لا لِوقعها في إطفاء هَيَجانه (هو الآن أبْعَد ما يكون عن كلِّ إثارة)، لكن

Twitter: @ketab_n

لِحجْب ذكرى جولي المؤلمة على نحو لا يُطاق. يَعلمُ أنّ وحْدَها الحكاية المُختلَقة يُمْكن أنْ تُنْسيه ما حدثَ في الواقع. تحذوهُ رغبة أنْ يَروي، من غير تأخير، هذه الحكاية الجديدة بصوتٍ عالٍ، أنْ يُحوّلها إلى احتفالٍ بالأبواق، يمْحو كلَّ أثرٍ للتظاهُر البئيس بالمُضاجعة، يجعله كأنْ لمْ يَكن، التظاهُر الذي أضاعَ عليه جولي.

«لقد كنتُ ذَكَراً بصيغة الجمع»، يُردِّد مرّاتٍ في سرِّه، يتخيّلُ، جواباً عن ذلك، ضحكة بونتوفان المُتواطئة، تتراءَى له ابتسامة ماشو الفاتنة الذي سوف يقولُ له: «أنتَ ذَكَرٌ بصيغة الجمع، لن ندعوك منذ الآن إلا بهذا الاسم». تسُرُّه الفكرة فيبتسم.

في طريقِهِ نحو درّاجته النارية المركونة في الجانب الآخَر من الساحة، يَرَى رجُلاً قادماً نحوه، أقلّ منه سنّاً، يرتدي بذلة تعودُ إلى عصرٍ سحيق. يُحدّقُ به فانسون مبهوتاً. آه، كمْ أصابَتْه هذه الليلة الغريبة بالدوار، فلمْ يعُد مُهيّأ لأنْ يستبين عقلياً هذا التجلّي. أيتعلّقُ الأمْرُ بمُمَثل يرتدي بذلة تُحيلُ على حقبة تاريخية؟ هلْ لِما يَرى صلة بالمرأةِ الطيّبة مُعِدّة البرامج التلفزيونية؟ رُبّما سجَّلا أمسِ بالقصر وَصْلة إشهاريّة؟ لكنْ، ما إنْ تلتقي عيناهُما يلمَحُ في نظرةِ الشابّ اندهاشاً صادقاً، لنْ يكونَ أبداً بمقدور أيّ مُمَثلٍ تشخيصه.

•

Twitter: @ketab_n

49

ينظرُ الفارسُ الشابّ إلى الغريب، تسترعي الخوذةُ أساساً انتباهَهُ. لقد كانَ حَمْلُ الفرسان للخوذة، قبل قرْنيْن أو ثلاثة، دالاً على تأهُّبهم للحرب، ما يُدهشُه أكثر خشونة لِباس الرجُل. إنّه يرتدي سروالاً طويلاً واسعاً بدون شكلٍ مُحدَّد، لا يُمْكنُ أنْ يرتديه سوى مُزارعين مُعدمين، أو ربّما الرّهبان.

يشعرُ بنفسه مُنهَكاً للغاية إلى حدِّ الضيق، ربّما هو في نوم أو حُلم أو هذيان. أخيراً، يدنو منَ الرجُل الذي يفتحُ فمه، ينطِقُ بعبارةٍ تنمُّ عن ذهوله: «أأنتَ مِنَ القرن الثامن عشر؟»

السؤالُ غريبٌ وعَبثي، لكن الطريقة التي بها تلفّظه الرجُلُ كانت أغربَ وأشدَّ عبثاً، لِنبرتِها المجهولة، كما لو أنّ صاحبَها مبعوثٌ قادمٌ من مملكةٍ غريبة، تعلّمَ الفرنسية في البلاط من غير أنْ يعرفَ فرنسا. تلك النبْرَةُ وطريقة التلفظ الغريبتان هُما ما جعلَ الفارسَ يُفكّرُ أنّ هذا الرجُلَ يُمكنُ أنْ يكونَ حقّاً من زمن آخَر.

«نعَم، وأنت؟» يسأله.

– «أنا؟ من القرن العشرين»، يُضيف: «مِنْ أواخر القرن العشرين»، ثمّ يقول أيضاً: «لقد قضيتُ للتوّ ليلة رائعة».

يقول الفارسُ وقد أذهَلتْهُ العبارة: «أنا أيضاً».

يتخيّلُ السيدة ت.، يشعُرُ فجأةً بموجةِ امتنان تجتاحُه. يا إلهي، كيف أمْكنه أنْ يُركّزَ كلَّ ذلك الاهتمام على ضحكة الماركيز؟ كما لو أنّ الأهمّ لمْ يكن سِحْرَ الليلة التي عاشها للتوّ،

Twitter: @ketab_n

السّحر الذي يُبْقيه دوماً في مثل هذه النشوة التي تُريه الأشباح، تجعله يخلطُ الحُلمَ بالواقع، كما تجعله خارجَ الزمن.

يُكرِّرُ الرجُلُ ذو الخوذة بنبرتِهِ الغريبة: «لقد قضيتُ للتوّ ليلة رائعة للغاية».

يهزُّ الفارسُ رأسَه كما لو كان يقولُ: نعَم أفهمُك صديقي، ومَن غيري يُمكِنُ أنْ يفهمَك؟ يتذكّرُ أنّه لنْ يَقوَى أبداً على الإفصاح عمّا عاشه، مادام قد تعهّدَ بكتمان السّر. لكنْ، أيكونُ إفشاءُ سرٍّ انقضت على وُقوعه مائتا سنة إفشاءً؟ تهيّأ له أنّ إله المُتحرّرين جنسياً بعَثَ إليه بهذا الرجُل كي يتسنّى له أن يُحدّثه، أنْ يبوحَ له بما عاشه، وأنْ يبقى، في الآن ذاتِه، وفياً لتعهُّدِهِ بالكتمان، بَعَثه إليه كي يتمكّنَ أيضاً مِنْ نقْلِ لحظةٍ من حياتِهِ إلى مكانٍ ما في المستقبل، أنْ يُتيحَ لها الخلودَ ويُحوّلَها إلى مَجْد.

«أأنتَ حقّاً من القرْن العشرين؟»

«نعَم ياعزيزي. تحدُثُ، في هذا القرن، أشياءُ خارقة، منها التحرّر الأخلاقي. فقد قضيتُ للتوّ، أكرّرُ ذلك، ليلة مُذهلة.

- أنا أيضاً» يقولُ الفارسُ مرّةً أخرى، ويتأهّبُ لِيحْكي قصّتَه.

«ليلة غريبة، غريبة جدّاً، لا تُصدَّق» يُكرّرُ الرجُلُ ذو الخوذة وهو يُثبّتُ في الفارس نظرةً ثقيلة مُتلهِّفة.

يَرَى الفارسُ في تلك النظرة رغبة مُلحّة في الكلام، شيءٌ مّا في تلكَ الرغبة يُزعجُه، يفهمُ أنّ ذلك التلهُّفَ على الكلام ينطوي في الآن ذاته على لا مبالاةٍ شديدة، أي إنَّ صاحبَها لا يكترثُ

Twitter: @ketab_n

بالإنصات له. وما إنْ صدَّ الفارسُ ذلك التلهُّف، فقدَ فوراً مَيْلَه إلى البَوْح، لمْ يَعُد يَرَى مِن مُسوّغٍ لِتمديدِ اللقاء.

يشعُرُ بموْجةِ تعَبٍ تجتاحُهُ من جديد. يتحسَّسُ وجهَهُ بيَدِه، يشتمُّ رائحة الحُبّ التي ترَكتْها السيدة ت. على أصابعه. تُوَلّد له تلك الرائحة حنيناً، وتحذوهُ الرغبة أنْ يكونَ وحيداً بالعرَبة التي تُقِلّه نحو باريس ببُطء.

50

بَدا الرجُلُ ذو البذلة الغريبة لفانسون في بدايةِ شبابه، وهو لذلك مُضطرٌّ بوجْهٍ مّا أنْ يَهْتمَّ باعترافاتِ مَنْ هُم أكبرُ منه سِنّاً. عندما قال له فانسون مرّتيْن «لقد قضيتُ للتوّ ليلة رائعة» وأجابَ «أنا أيضاً»، أعتقد أنّه لمَحَ على وجْهه فضولاً، غيْرَ أنّ ذلك الفضولَ خبَا فجأةً مِنْ غيْر سبَبٍ واضح، حلّتْ محلّه لا مُبالاةٌ ممزوجة بنوعٍ مِنَ الغطرسة. لقد استغرقَ الجوُّ الودّي المُلائم للمُسارّة دقيقة بالكاد، ثم تبخّر.

ينظرُ إلى بذلةِ الشاب بغيْظ، مُتسائلاً مَن يكونُ، في نهاية المطاف، هذا المُهرِّج؟ الحذاء بقضبان من فضّة، السروال الأبيض القصيرُ مضغوطٌ على الفخذين والرِّدفيْن، وكلُّ تلك الصُّدرات الفائقة الوَصْف، مِنْ مخمل ودانتيل التي تُغطّي الصّدرَ وتُزيّنُه. يُمسِكُ فانسون الوشاحَ المعقود حول عنق الرجُل، يتأمّله بابتسامة تُعبِّرُ عن إعجابٍ ساخر.

Twitter: @ketab_n

جُرأةُ تلك الحركة جعلت الرجُل ذا البذلة العتيقة يستشيطُ غيظاً، ينقبضُ وجهُه، يعلو الحِقدُ ملامحَه. يهُزُّ يدَهُ اليُمنى كما لو يُريد أنْ يصفعَ مَنْ صَدَر عنه التصرُّفُ الوقِح. يُرْخي فانسون الوشاحَ مِنْ بيْن أصابعه، يتراجَعُ خُطوةً إلى الوراء. بَعْد أنْ رَمَقهُ الرجلُ بنظرةِ ازدراء، استدارَ وقصَدَ العرَبة.

أعادَ ذلك الازدراءُ فانسون بقوّةٍ إلى اضطرابه. أحسَّ فجأةً أنّه ضعيف. هو واثقٌ أنّه لنْ يَقوَى على روايةِ حكايةِ المُضاجَعة الجماعية لأحَد. لنْ يمْلِكَ القدرة على الكذب. هو أشدُّ حزناً من أنْ يجرُؤ على الكذِب. لا تحذوهُ إلا رغبة واحدة، أنْ ينسَى سريعاً تلك الليلة، كلَّ تلك الليلة الضائعة، يمحوها، يطمسها، يُزيلها. في تلك اللحظة ذاتها، يشعرُ بظمأ حادٍّ إلى السُّرعة.

بخُطى ثابتة، يُسرعُ نحو درّاجته النارية، يجتاحُهُ حبٌّ جارفٌ نحو درّاجَته التي فوقها سوف يَنسَى كلَّ شيء، يَنسَى حتّى نفسَه.

51

تلتحقُ بي فيرا، تجلِسُ إلى جانبي في السيارة.

«انظري، هناك، أقول لها

- أين؟

- هناك! إنّه فانسون! ألمْ تعْرفيه؟

- فانسون؟ أهو ذاك الذي يركبُ الدراجة النارية؟

- نعَم، أخشى أنْ يقودَ بسُرعة، أنا حقّاً قلقٌ من أجله.

Twitter: @ketab_n

- أيُحِبُّ أنْ يقودَ بسُرعة؟ هو أيضاً؟

- ليس دائماً، لكنّه اليوم سوف يقودُ بجنون.

- مسكونٌ بالأرواح هذا القصر. سوف يجُرُّ نحْساً على الجميع. رجاءً انطلق!

- انتظري لحظة»

لاأزالُ أريد أنْ أتأمّل الفارسَ الذي يقصدُ العرَبة بتأنٍّ. أريدُ أن أستلِذ إيقاعَ خُطاه، كلّما تقدّمَتْ ازدادَتْ تمهُّلاً. أعتقدُ أنّي أكتشِفُ، في ذلك التأنّي، دَمْغة سعادة.

يُحَييه الحوذي، يتوقّفُ، يُقرّبُ أصابعَه من أنفه ثمّ يصعَدُ العربة، يجلسُ مُنزوياً في رُكن، رجْلاه مُمدَّدتان بانشراح والمقعد يرتجّ. سوف تأخذهُ إغفاءةٌ ثمّ يستيقظ، سوفَ يحرصُ في غضون ذلك الوقت بكامله على أنْ يظلّ قريباً من الليلة التي تتلاشى، بلا رحمة، في ضياء النهار.

لا غد.

لا جمهور.

رجاءً صديقي، كنْ سعيداً. لديّ إحساسٌ مُبهمٌ أنّ على قدرتِكَ أنْ تكونَ سعيداً يتوقّفُ أمَلُنا الوحيد.

تختفي العربة في الضباب، أديرُ مُحرِّكَ السيارة وأنطلق.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

البُطْء

البُطْء، روايةُ ميلان كونديرا السّابعة. تَحْكي، بتَوَازٍ، قِصَّتَيْ حُبّ؛ إحْداهُما في القرْن الثامن عَشَر الذي شهد أجواء التحرر والانفتاح، وهي بطيئة وذاتُ طَعْم، أمّا الأخرَى، فتَدُورُ في عَصْرنا، وهي سَريعة وباعِثة على السُّخرية.

ويَدْعونا الكاتب، وهو يُمَجِّدُ البُطْءَ في هذه الرّواية، إلى الوَعْي «بالوشيجَة السرِّيةِ التي تَرْبطُ البُطْءَ بالذاكِرَة، وتَصِلُ السُّرْعة بالنّسْيان». وفي هذا العالَم الذي لا تنفكُّ فيه سُرْعة كلِّ شَيْءٍ تتنامى، يَرَى كونديرا أنّنا أضَعْنا الذاكِرَة التي تُفضي بنا إلى اللذة وتمكننا من الشعور بالمتعة في عيش الحاضر.

يُبرزُ كونديرا في هذه الرواية مفهوم علاقاتِ الحُبّ الرَّاهنة التي لمْ تَعُدْ تجسِّد الشعور الحَميمَ بَيْنَ ذاتَيْن، بلْ إنها نوع من الاستعراض المُصطَنع أمام الآخَرين. بهذا المَعْنى، فإنَّ رواية **البُطْء** تفكيرٌ في إعادَةِ رَسْمِ الحُدُود بيْنَ فضَاءاتِ الحَمِيم والخاص من جهة والعام من جهة أخرى، في عالَمٍ غدَا فيهِ كُلُّ شَيْءٍ مَحْكوماً بالسُّرْعة والعَجَلة.

في هذا العَمَل، نعثرُ مجدداً على عناصر الغرابة والخفَّة والهَزل، وهي العناصِر المُشكِّلة لأسْلوب كونديرا، كما نجد فيها آراءه حوْل العالَم والسّياسة والمثقفين ووَسَائل الإعلام والحُبّ والرّغبة والتّحرّر الجنسي...؛ وهي المواضيع الأثيرَة عند هذا الكاتب الكبير.

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com

ISBN 978-9953-68-579-3
9 789953 685793

لوحة الغلاف لبيكاسو